الأوائل والأواخر يوم القيامة



د. مريم بنت علي بن سليمان الحوشاني[*]



المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، صاحب الحوض والشفاعة، المبعوث بين يدي الساعة بالإنذار والتبيين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فعندما يستغرق الناس في هذه الدنيا وملذاها، وينساقون وراء شهواها فيقعون في المحرمات ويرتكبون المنهيات يبحث المسلم عن وسيلة لإيقاظ القلوب من غفلتها وتجلية الأبصار من غشاوهّا، فيجد ذلك في الحديث عن يوم القيامة ليرجع بحقيقة خالدة وهي أن الدنيا متاع الغرور قال – تعالى-: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥] فلا يغتر بها ولا تلهيه عن العمل لما بعد الموت ويعلم أن الدرجات والرتب

(*) أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة المشارك بكلية الآداب – بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن.

العالية في الآخرة بحسب الأعمال الصالحة في الدنيا فهناك الأوائل الذين حازوا السبق، وهناك الأواخر الذين كانوا في آخر الركب، فيشمر المرء عن ساعد الجد ويسعى سعياً حثيثاً للآخرة، ولما كان الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الذي يجب على كل مسلم أن يعلمه كان هذا البحث الذي بعنوان (الأوائل والأواخر يوم القيامة).

وكان اختيار هذا الموضوع للأسباب التالية:

١- انكباب كثير من الناس على ملذات الدنيا والانسياق خلفها، والغفلة عن الآخرة، فكان لابد من شحذ الهمم وربطها بالآخرة.

٢- عدم الكتابة في هذا الموضوع -حسب اطلاعي- وهو حصر الأوائل والأواخر يوم القيامة ببحث مستقل.

٣- شغف كثير من الناس بمعرفة الأوائل يوم القيامة وكذا الأواخر، ولا سيما أن هذا جانب غيبي متوقف معرفته على ما جاء في القرآن وصحيح السنة.

٤- وجود أحاديث ضعيفة وموضوعة تتعلق بهذا الموضوع تحتاج إلى تمييز وتوضيح الصحيح من السقيم.

أهمية البحث:

تبرز أهمية الدراسة من خلال النقاط الآتية:

١-تستمد هذه الدراسة أهميتها من أهمية موضوعها، وهو من الموضوعات المتعلقة بالركن الخامس من أركان الإيمان وهو الإيمان باليوم الأخر.

٢-هذه الدراسة استبعدت الأحاديث الضعيفة والموضوعة الواردة في هذا الموضوع، فكانت بياناً واضحاً لمسائل هذا الموضوع ودقائقه.

٣-بيان أن النّاس لما تفاضلوا في الإيمان في الدنيا، تفاضلوا يوم القيامة في التقديم والتأخير.

٤-تحفيز المسلمين إلى المسارعة في الطاعات ليكونوا في ركب الأوائل يوم القيامة، وكذا تحذيرهم من الذنوب التي تؤخرهم ويحاسبون عليها.

الدراسات السابقة:

سبقني جمع من العلماء الأجلاء في التأليف حول هذا الموضوع و لم تكن تلك المؤلفات خاصة في الأوائل والأواخر يوم القيامة، بل شاملة لكل الأوائل، وتناولت الاوائل في اليوم الآخر كموضوع من موضوعات تلك المؤلفات، ولعل أهمها (الأوائل) لابن أبي عاصم ت(٢٨٧) و(الأوائل) لابن أبي عروبة ت(٣١٨) و(الأوائل) للطبري ت(٣٦٠)، وكانت هذه المؤلفات جميعها عبارة عن جمع للأحاديث دون شرح أو تعقيب، كما أنها اشتملت على بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة، أما الأواخر يوم القيامة فلم أجد فيها مؤلفاً حسب علمي.

منهج البحث:

قامت الدراسة على المنهج الاستقرائي ثم منهج تحليل المضمون وهو أحد أشكال المنهج الوصفي وفق الخطوات الإجرائية الآتية:

١- قمت بجمع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدخل تحت هذا الموضوع في مظانها، وبعد ذلك قسمتها إلى فصلين، وكل فصل مباحث .

٢- سرت على منهج أهل السنة في الاستدلال، وتقرير المسائل واستنباط الاحكام من النصوص والترجيح بين أقوال العلماء.

٣- اعتنيت ببيان النصوص التي أنقلها عن أهل العلم بوضعها بين قوسين وأضع الإحالة في آخر الكلام المنقول وأشير لمرجعه في الحاشية.

٤- عزو الآيات إلى سورها مع ذكر اسم السورة ورقم الآية في المتن.

٥- تخريج الحديث من الصحيحين، فإن لم يوجد فيها أخرجه من كتب السنة الأخرى وغيرها وأبين درجته إن أمكن.

٦- عزو أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة إلى مظانها من كتب السلف.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، وفهارس، على التفصيل الآتي:

أما المقدمة: فكانت في بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث.

أما التمهيد: فكان في التعريف بالأوائل، والأواخر ويوم القيامة.

أما الفصل الأول: فكان في الأوائل يوم القيامة واشتمل على أربع وعشرين مبحثاً:

المبحث الأول: أوَّل أشراط الساعة الكبرى.

المبحث الثاني: أوَّل من يسمع نفخة الصعق.

المبحث الثالث: أوَّل منازل الآخرة.

المبحث الرابع: أوَّل ما ينّتن من الإنسان إذا مات.

المبحث الخامس: أوَّل من يبعث وتنشق عنه الأرض.

المبحث السادس: أوَّل من يكسى من العباد يوم القيامة.

المبحث السابع: أوَّل من يكسى حلّة من النّار.

المبحث الثامن: أوَّل من يفرّ من أبيه وأمه وأخيه وصاحبته.

المبحث التاسع: أوَّل شافع وأول مشفع.

المبحث العاشر: أوَّل من يؤذن له بالسجود يوم القيامة.

المبحث الحادي عشر: أوَّل من يحاسب من الأمم.

المبحث الثاني عشر: أوَّل ما يقضى بين الناس.

المبحث الثالث عشر: أوَّل من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة.

المبحث الرابع عشر: أوَّل الأعمال التي يحاسب عليها المرء.

المبحث الخامس عشر: أوَّل ما يتكلّم من الإنسان يوم القيامة.

المبحث السادس عشر: أوَّل من تسعر بهم النّار.

المبحث السابع عشر: أوَّل ثلاثة يدخلون النّار.

المبحث الثامن عشر: أوَّل من يرد حوض النبي -ﷺ-.

المبحث التاسع عشر: أوَّل من يجيز الصراط.

المبحث العشرون: أوَّل من يفتح له باب الجنّة.

المبحث الحادي والعشرون أوَّل الأمم دخولاً الجنّة.

المبحث الثاني والعشرون: أوَّل ثلاثة يدخلون الجنّة.

المبحث الثالث والعشرون: صفة أوَّل زمرة تدخل الجنّة.

المبحث الرابع والعشرون: أوَّل طعام أهل الجنّة.

الفصل الثاني: الأواخر يوم القيامة. واشتمل على ستة مباحث.

المبحث الأول: آخر أشراط الساعة الكبرى.

المبحث الثاني: آخر من تحشرهم النّار.

المبحث الثالث: آخر المخلوقات موتاً.

المبحث الرابع: آخر من يجيز الصراط.

المبحث الخامس: آخر أهل النّار خروجاً منها، وآخر أهل الجنّة دخولاً فيها.

المبحث السادس: آخر دعوى أهل الجنّة.

الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج.

ثم قائمة المراجع والفهارس.

هذا وأسأل الله الكريم أن يغفر لي تقصيري وإسرافي في أمري، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه سبحانه، وأن ينفع به وصلى الله على نبينا محمد وعلى آلــه وصــحبه أجمعين.

* * *

التمهيد
التعريف بالأوائل والأواخر يوم القيامة

أولاً: تعريف الأوائل.

لغة: أوَّل الشيء هو ابتداء الشيء، فالواحد أوَّل العدد، والعدد غير متناه. وجمعه أوَّلون، وأوائل، وأوالٍ. وقيل: هو ما يأتي قبل غيره في الوقت أو الترتيب، عكس آخر، ويستعمل عند ذكر عددٍ من الأمور، فالأول المتقدّم وهو نقيض الآخر(١).

اصطلاحاً: الأول: اسم للسابق المنفرد الذي لم يسبقه غيره ولم يشاركه في الاسم سواه(٢)، ولذا كان من أسماء الله الأول: وهو الذي ليس قبله شيء(٣).

ثانياً: تعريف الأواخر.

لغة: آخر الشيء هو الذي ليس بعده شيء، وجمعه أواخرُ وآخِرون. وهو عكس الأول، والأنثى آخره، ويأتي الآخر بمعنى غير كقولك: رجلٌ آخَرُ، وثوب آخر(٤).

اصطلاحاً: الآخر: اسم للمتأخر الذي ليس بعده شيء، ومن أسماء الله -عز وجل- الآخر وهو الذي ليس بعده شيء(٥).

ثالثاً: تعريف يوم القيامة.

١/ **تعريف اليوم في اللغة:** يوم مفرد وجمعه أيَّام لا يكسَّر إلا على ذلك، وأصله

(١) انظر لسان العرب (٧١٦/١١-٧١٨) ابن منظور مادة (أول).
(٢) انظر الفروق (١٧٣/١) أسعد النيسابوري الكرابيسي.
(٣) انظر مجموع الفتاوى (٤٠٦/٢) ابن تيمية.
(٤) انظر لسان العرب (١٣٠١٢/٤) ابن منظور.
(٥) انظر صحيح مسلم (٢٠٨٤/٤) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما تقول عند النوم وأخذ المضجع ح(٢٧١٣).

أيْوامٌ فأدغم و لم يستعملوا فيه جمع الكثرة، واليوم معروف مقدارهُ، من طلوع الشمس إلى غروبها، والوقت الحاضر[١].

٢/ **تعريف القيامة في اللغة**: القيامة قيل: أصله قام الخلق من قبورهم قياماً وقيامة، وقيل: هو تقريب قيماً وهو بالسريانية بهذا المعنى. والقيام في الأصل: مصدر قام إذا استقلّ على رجليه، وأصله قواما، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها[٢].

٣/ **تعريف يوم القيامة في الاصطلاح**: القيامة هو الوقت الذي يبعث فيه النّاس من قبورهم للحساب والجزاء، وسمّيت القيامة بذلك لأن النّاس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين. ورد هذا الاسم في القرآن سبعين مرة، وسميت سورة من سور القرآن بالقيامة[٣].

* * *

(١) انظر لسان العرب ابن منظور، مادة (يوم).
(٢) انظر لسان العرب (١٢/٥٠٦)، وتاج العروس (٣٣/٣٢٠) الزبيدي.
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن (٥/٣٠٥) القرطبي، ومعاني القرآن الكريم (٢/١٥١) النحاس.

الفصل الأول
الأوائل يوم القيامة

لما اختلف النّاس في الدنيا في الصلاح والتقى واختلفت بناءً على ذلك أعمالهم الصالحة؛ تفاوتت درجاهم ومكانتهم عند الله -عَجَّلَ-. والميزان الذي يزن به الله -عَجَّلَ- الناس هو التقوى. وهذا الميزان هو الذي يحدد من يتقدم ومن يتأخر يوم القيامة، فمن حاز سبق التقوى كان من الأوائل يوم الجزاء والحساب.

وفي هذا الفصل سوف أتناول جميع الأوائل يوم القيامة بدءاً من أشراط الساعة إلى نعيم الجنّة وعذاب النّار. وفق المباحث التالية:

المبحث الأول: أوّل أشراط الساعة الكبرى.

من رحمة الله بعباده؛ أن جعل قبل قيام الساعة التي استأثر بعلمها أشراط وعلامات كبرى، إذا وقعت تبيَّن للناس أنه قد قرب قيام الساعة، وهذا ما جعل بعض العلماء الذين الّفوا في العقيدة والإيمانيات عند حديثهم عن اليوم الآخر ذكر أشراط الساعة أولا قبل الحديث عن اليوم الآخر، باعتبار أنها مقدمة لهذا اليوم، ودليل على قرب وقوعه. ولما كانت هذه الأشراط كذلك، كان من المناسب ذكر أوائلها وأواخرها في هذا البحث

فبين يدي الساعة أشراط صغرى وكبرى، فأما الصغرى فظهرت أوائلها في عصر النبوة وكانت بعثة النبي -ﷺ- من أوائلها كما قال -ﷺ-: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ**

كَهَاتَيْنِ، وَيُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ فَيَمُدُّهُمَا»[١].

واستمرت أشراط الساعة الصغرى بالظهور ومازالت تظهر إلى قيام الساعة، وأما أشراط الساعة الكبرى فهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع، فلا تقوم الساعة حتى تقع هذه الأشراط .كما قال - تعالى-: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ**﴾[محمد: ١٨]. وهذه الأشراط وردت في أحاديث عدة مختلفة في ترتيبها، وهي: خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم -عليه السلام- من السماء، وخروج يأجوج ومأجوج، والخسوفات الثلاث، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة، والدخان، وخروج نار من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.

ويجمعها حديث حذيفة الغفاري-رضي الله عنه- قال: «**اطّلع النبي -صلى الله عليه وسلم- علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات؛ فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم -عليه السلام-، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك: نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**»[٢].

وليس هناك نصاً صريحاً يُبيّن ترتيب هذه الأشراط حسب وقوعها. والنصوص

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥ / ٢٣٨٥) في كتاب الرقاق، باب قول النبي-صلى الله عليه وسلم-: « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ » ح (٦١٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤ / ٢٢٢٥) في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ح (٢٩٠١).

الواردة فيها اختلفت في ترتيبها من نص لآخر، ومن الاختلاف في هذا الترتيب الاختلاف في أوّل هذه الأشراط وقوعاً، فلما اختلفت النصوص في أوّل هذه الأشراط اختلاف العلماء في هذه الأوَّليَّة، وهذا الاختلاف موجود في عهد الصحابة -رضي الله عنهم- فقد روى أبو زرعة قال: جَلَسَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بِالْمَدِينَةِ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنِ الآيَاتِ: أَنَّ أَوَّلَهَا خُرُوجًا الدَّجَّالُ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو: لَمْ يَقُلْ مَرْوَانُ شَيْئًا، قَدْ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إن أوَّل الآيات خروجاً طلوعُ الشَّمسِ من مغرِبها، وخروج الدابة على الناسِ ضُحَى، وأيَّهما ما كانت قبلَ صاحبَتِها فالأُخرى على إثرِها قريباً**»[1].

وفي رواية الإمام أحمد زاد فقال: «قال عبد الله، -وكان يقرأ الكُتُبَ[2]-: وأظن أُولاها خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها...»[3].

ولما اختلف العلماء في أوّل الآيات ظهوراً بناء على اختلاف النصوص في ذلك، حاول بعض العلماء الجمع بين هذه النصوص ومنهم الطيبي والحافظ ابن كثير وابن حجر -رحمهم الله-.

فقال الطيبي -رحمه الله-: (الآيات أمارات للساعة: إما على قربها، وإما على حصولها؛ فمن الأول: الدَّجَّال، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف. ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤ / ٢٢٦٠) في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ح (٢٩٤١).

(٢) يعني يقرأ كتب بني إسرائيل. انظر عون المعبود (١١ / ٢٨٦) محمد العظيم آبادي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١١ / ١١٠-١١١)، ح (٦٨٨١).

الناس)[١]. فالطيبي يرى أن الدجال أوّل الآيات ظهوراً وفق ما ذكره في ترتيبه السابق.

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في كلامه على حديث عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-: (أي أوّل الآيات التي ليست مألوفة[٢]، وإن كان الدجال ونزول عيسى -عليه السلام- من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، فكل ذلك أمور مألوفة، لأنّ أمر مشاهدته ومشاهدة أمثاله مألوف، فأما خروج الدابة على شكل غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إيّاهم بالإيمان أو الكفر، فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أوّل الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية)[٣].

فابن كثير يرى أن خروج الدَّابة هو أوّل الآيات الأرضية التي ليست بمألوفة، وطلوع الشمس من مغربها، أول الآيات السماوية غير المألوفة، أما ظهور الدجال، ونزول عيسى -عليه السلام- من السماء، وخروج يأجوج ومأجوج، فإنهم يظهرون قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل ظهور الدابة، إلا أنهم بشر، مشاهدتهم وأمثالهم من الأمور المألوفة، بخلاف ظهور الدابّة وطلوع الشمس من مغربها فهو ليس من الأمور المألوفة، وعليه فهو يرى أن أول أشراط الساعة الكبرى ظهوراً هو الدّجال، وهو من الآيات المألوفة.

---

(١) فتح الباري (١١ /٣٥٢-٣٥٣) ابن حجر.
(٢) يقصد بذلك ما جاء في أوّل الحديث: «إن أوَّل الآيات خروجاً طلوعُ الشَّمسِ من مغرِبها، وخروج الدابةُ على الناسِ ضُحَى».
(٣) النهاية في الملاحم والفتن (١ /١٠٩) ابن كثير.

ولابن حجر-رحمه الله- جمع لطيف بين النصوص فقال: (فالذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامَّة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى -عليه السلام-، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب... وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّه عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ يُغْلَقُ بَابُ التَّوْبَةِ فَتَخْرُجُ الدَّابَّةُ، تُمَيِّزُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ تَكْمِيلاً لِلْمَقْصُودِ مِنْ إِغْلَاقِ بَابِ التَّوْبَةِ، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس)[1].

ولعلَّ ما ذهب إليه ابن حجر هو القول الفصل في هذه المسألة. فبالنظر إلى مجموع النصوص الواردة في أشراط الساعة الكبرى وتتابع أحداثها وقوعاً بعضها أثر بعض، نجد أنَّ أوّلَ الآيات ظهور الدجال ثم نزول عيسى -عليه السلام-، ثم خروج يأجوج ومأجوج، فإذا قتلهم الله بالنغف[2] في أعناقهم وقبض الله - تعالى- نبيه عيسى -عليه السلام- وخلت الأرض منه، وتطاولت الأيام على الناس، وذهب معظم دين الإسلام أخذ الناس في الرجوع إلى عاداتهم وكفروا وفسقوا[3] بعدها تطلع الشمس من مغربها، ثم يلي ذلك خروج الدابة التي تميز المؤمن من الكافر؛ تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة[4].

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١١ /٣٥٣) ابن حجر.
(٢) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، واحدتها نغفة. انظر النهاية في غريب الحديث (٥/٨٧).
(٣) انظر عون المعبود (١١ /٢٩١) محمد العظيم آبادي.
(٤) انظر فتح الباري (١١ /٣٥٣) ابن حجر.

ولو كانت الشمس طلعت من مغربها قبل خروج الدجال ونزول عيسى -عليه السلام- لم ينفع الكفار إيمانهم أيام عيسى ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحداً[(١)].

وعليه فيكون أوَّل أشراط الساعة الكبرى ظهوراً، هو: المسيح الدجال. أعاذنا الله من فتنته.

المبحث الثاني: أوّل من يسمع نفخة الصعق.

ستنتهي هذه الحياة إذا أراد الله -عز وجل- بأمره -سبحانه وتعالى- إسرافيل بالنفخ في الصور[(٢)] نفخة الصعق، وهي ونفخة قوية هائلة، تدمر كل من يسمعها فلا يستطيع المرء فعل أي شيء حينها. قال - تعالى-: **﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾** [يس: ٤٩-٥٠].

وأوّل من يسمع هذه النفخة المهلكة، هو رجلٌ يُصلح حوض إبله، فإذا سمعها أمال عنقه ورفعها من هنا ثم من هنا يستمع، بعد ذلك يُصعق ويصعق من سمع هذه الصيحة.

روى يَعْقُوبَ بْنَ عَاصِمِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ، فقال: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، وَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ؟ تَقُولُ: إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ أَوْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا - لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لاَ أُحَدِّثَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا، يُحَرَّقُ

(١) انظر عون المعبود (١١ /٢٨٦) محمد العظيم آبادي.

(٢) الصور: القرن الذي ينفخ فيه، ويسمى أيضاً الناقور، قال - تعالى-: **﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾**، وقال - تعالى-: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾** انظر عمدة القاري (٢٢٢/١٨) العيني.

الْبَيْتُ، وَيَكُونُ وَيَكُونُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ – لا أَدْرِي: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا**[1]**، فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ**[2] **لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّى تَقْبِضَهُ**» قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، قَالَ: «**فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلامِ السِّبَاعِ**[3]**، لا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ: أَلا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا**[4]**، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ**[5] **حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ...**»[6].

---

(١) جاء في حديث النواس بن سمعان -رضي الله عنه- الذي أخرجه الإمام مسلم -رحمه الله- الجزم بمدة بقاء الدجال في الأرض، فقال: «قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم ...» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٥٢/٤) في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه ح (٢٩٣٧).

(٢) كبد الجبل: أي وسطه وداخله، وكبد كل شيء وسطه. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٧٦/١٨) النووي.

(٣) قال العلماء: معناه يكونون في سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطير في العدوان وظلم بعضهم بعضاً في أخلاف السباع العادية.
انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٧٦/١٨) النووي.

(٤) أصغى: أي أمال. والليت: -بكسر اللام- هي صفحة العنق وهي جانبه. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٧٦/١٨) النووي.

(٥) يلوط: أي يصلح حوض إبله ويطينه، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٦٢/٤) ابن الأثير.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٥٩/٤) في كتاب الفتن، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى ... ح(٢٩٤٠).

فنفخة الصعق أوّل من يسمعها رجل، وعمله الذي يؤديه آنذاك اصلاح وتطين حوض إبله، فإذا سمعها صعق، ثم يسمعها بقية الناس فيصعقون. وهذا ما سماه الله – ﷻ– بالساعة بقوله – تعالى–: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. وبالواقعة، والصاخة.. وغير ذلك.

المبحث الثالث: أوّل منازل الآخرة.

إذا مات ابن آدم قامت قيامته، وانتقل إلى عالم آخر غير عالم الدنيا، عالم بين الدنيا والآخرة، يسمى (البرزخ)، والبرزخ معناه: الحاجز بين الشيئين. وهو ما بين الدنيا والآخرة، قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ سواء قُبر أم لم يقبر[1].

وقد جاء ذكر البرزخ في القرآن الكريم في قوله – تعالى–: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وعالم البرزخ من عالم الغيب الذي يجب الإيمان به، وهو يدخل ضمن الركن الخامس من أركان الإيمان الذي لا يصح إيمان العبد إلا به، وهو الإيمان باليوم الآخر.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه، وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب[2]. هذا البرزخ وما فيه من نعيم أو عذاب يُعد

(١) انظر لسان العرب (٨/٣) ابن منظور، والتعريفات (٣٨) الجرجاني.
(٢) انظر الروح (٨١) ابن القيم.

أول منازل الآخرة. روى هانئ مولى عثمان قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ، إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تُذْكَرُ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَا تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَـذَا؟ فَقَـالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنـزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**» قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «مَـا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»[1].

ومما يدل على عذاب القبر ونعيمه قوله - تعـالى-: ﴿**وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

قال ابن كثير -رحمه الله-: (أرواحهم -يعني آل فرعون- تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار... وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله - تعالى-: ﴿**ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾[2]، وأيضـاً قولـه - تعـالى-: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [السجدة: ٢١]

قال الطبري -رحمه الله-: (اختلف أهل التأويل في معنى العذاب الأدنى الذي وعد الله أن يذيقه هؤلاء الفسقة. وقال آخرون: عنى بذلك عذاب القبر ... قـال مجاهـد:

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥٥٣/٤) في كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكـر المـوت ح(٢٣٠٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث هشام بن يوسف، وأخرجه ابن ماجه في سـننه (١٤٢٦/٢)، في كتاب الفتن، باب ذكر الموت والاستعداد له ح(٤٢٦٧). وحسنه الألبـاني (صـحيح الجامع/٣٤٧/١) رقم (١٦٨٤).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (٨٢/٤) ابن كثير.

الأدنى في القبور وعذاب الدنيا[١].

وكذلك دلت السنة على عذاب القبر ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قَالَ نَبِيُّ الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إنَّ العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ وإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَيقْعَدَانهُ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟، قال: فأما المؤمن فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ له: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قد أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ نَبِيُّ اللهُ -صلى الله عليه وسلم-: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا**»[٢].

قال الطيبي: (لا يلزم من أن الدنيا دار بلاء، والآخرة دار جزاء أن لا يقع في أحدهما ما يختص بالأخرى، فإن القبر أول منازل الآخرة، وفيه الابتلاء والفتنة بالسؤال وغيره)[٣].

ولعظم فتنة القبر وعذابه كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتعوذ بالله منه روى أَبو هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَدْعُو: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[٤]. لذا كان القبر أوَّل منازل الآخرة، فمن نجا منه فما بعده أيسر. أعاذنا الله من فتنة القبر.

المبحث الرابع: أوّل ما ينّتن من الإنسان إذا مات.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٠/٢١) الطبري، وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٠٧/١٤) القرطبي.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٢/١) في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر ح(١٣٠٨).
(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (١٩٨/١) القرطبي.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٣/١) في كتاب أبواب السهو، باب التعوذ من عذاب القبر ح(١٣١١).

حرّم الله على الأرض أن تأكل اجساد الأنبياء قال رسول اللّـهِ -ﷺ-: (**إنَّ مـن أفْضَلِ أَيَّامكُمْ يوم الْجُمُعةِ فيه خُلقَ آدمُ وَفيهِ قُبضَ وَفيهِ النّفْخَـةُ وَفيـهِ الصّـعْقَةُ فَأَكْثرُوا علَيَّ من الصّلَاةِ فيه فإن صلاتَكُمْ معْرُوضَةٌ علَيَّ قال قالوا: يا رسُولَ اللّـهِ وكَيْفَ تُعْرضُ صلاتُنَا علَيْكَ وقد أَرِمْتَ يقُولُونَ بَليتَ فقال: إنَّ اللّهَ ﷻ حرَّمَ على الأرض أجْسَادَ الأَنْبيَاءِ**)[1].

فالأنبياء (عليهم السلام) بعد موتهم يظلون في قبورهم لا تتغير أجسادهم ولا تنتن، أما بقية الخلق فإن أجسادهم تأكلها الأرض وتنتن لمن شاء الله منهم، وأول من يـنتن من الإنسان بطنه، فعن طريف أبي تميمة قال: شَهِدتُ صَفوَانَ وَجُندَبًا وَأَصحَابَهُ وهـو يوصِيهِمْ فقَالُوا: هل سَمِعتَ من رسول اللّهِ ﷺ شيئا قال: سمعته يقول من سَمَّعَ، سَمَّـعَ الله بهِ يوم القِيَامَةِ قال: ومَنْ شاق شقّ الله عليه يوم القِيَامَةِ فقَالُوا: أَوصِنَا فقـال: (**إنَّ أوَّلَ ما يُنتِنُ من الإِنْسَانِ بَطنُهُ فمَنْ استَطَاعَ أنْ لا يَأكُلَ إلا طيِّبًا فَليَفْعَـلْ، ومَـنْ استَطَاعَ أنْ لا يُحالَ بَينَهُ وَبَينَ الجَنَّةِ بمِلءِ كف من دمٍ أَهرَاقَهُ فَليَفعَلْ، قلت لِـأبي عبد اللّهِ: من يقول سمعت رسُولَ اللّهِ ﷺ جُندَبٌ، قال: نعم جُنْدبٌ**)[2].

والنتن: هو الرائحة الكريهة. قال ابن حجر (رحمه الله): (وصرح بـه في روايـة صفوان بن محرز عن جندب، ولفظه: واعلموا أن أول ما ينتن من أحدكم إذا مـات بطنه، قوله: فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل، في رواية صفوان: فلا يـدخل

(١) أخرجه أبو داود في سننه(١/٢٧٥) في باب تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة ح(١٠٤٧) وصححه الألباني في تعليقه على السنن(١٦٤).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٦١٥)في كتاب الأحكام، بـاب مـن شـاقّ شـقّ الله عليـه ح(٦٧٣٣).

بطنه الا طيباً، هكذا وقع هذا الحديث من هذا الوجه موقوفا، وكذا أخرجه الطـــبراني من طريق قتادة عن الحسن هو البصري عن جندب موقوفا وأخرجه من طريق صفوان ابن محرز وسياقه يحتمل الرفع والوقف فإنه صدر بقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول من سمع الحديث)[١].

وهذا زجر ونهي عن أكل الحرام فأوّل ما ينّتن من الإنسان هو هذا الـــبطن الـــذي استوعب الحرام وغذى سائر الجسد به قـــال - تعـــالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

المبحث الخامس: أوّل من يبعث وتنشق عنه الأرض.

بعد نفخة الصعق الأولى والتي يهلك بها كل المخلوقات إلا من شاء الله كما قال - تعالى-: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ٦٨]. يظل الناس موتى، وفي قبورهم ما شاء الله أن يظلوا، فإذا شاء الله -سبحانه وتعالى- إحياء العباد وإعادتهم؛ أنـــزل ماء من السماء فتنبت منه أجساد العباد. ويبدأ الإنسان يتكون من عظم صغير وهو عجْبُ الذنب[٢] فإذا أصابه الماء بنمو مثل البقـــل، فـــإذا اكتمل نمو أجساد الناس أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخة البعث، فتعود الأرواح إلى الأجساد[٣]. روى عبدالله بن عمرو -رضي الله عنه- عن الرسول -ﷺ- فقال: قَالَ: رَسُولِ

(١) فتح الباري(١٣/١٣٠).

(٢) وهو عظم الصلب المستدير الذي في أصل العجز وأصل الذنب (وهو رأس العصعص). وهذا العظم لا يصيبه البلى والفناء، ولا تأكله الأرض بل يظل كالبذرة للأجساد، انظر فتح الباري (٨/٥٥٢).

(٣) جاء في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- ذكر الزمن بين النفختين من غير تحديد دقيق لها، فقال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْـــتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: «ثُمَّ يُنـــزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِـــنَ=

الله -ﷺ-: «...**ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ -** (أحد رواة الحديث) **فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}...**»[(1)].

عندها يخرج الناس من قبورهم ويبعثون، فيكون أول من ينشق عنه الأرض ويبعث هو سيد المرسلين وإمام الأولين والآخرين، سيدنا محمد -ﷺ- فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: قَالَ رسول الله -ﷺ-: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم القيامة، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**»[(2)].

وفي حديث آخر رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- قَالَ: «اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى العَالَمِينَ، -فِي قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ-، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ عِنْدَ ذَلِكَ يَدَهُ فَلَطَمَ اليَهُودِيَّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ- فَأَخْبَرَهُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَقَالَ: «**لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا**

=الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ» أخرجه البخاري في صحيحه (١٨٨١/٤) في كتاب التفسير، باب ﴿يَومَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفواجا﴾ ح (٤٦٥١). فأبو هريرة -رضي الله عنه- امتنع عن الإخبار بما لا يعلم بقوله: «أبيت» فلم يجزم بتحديد الزمن لعدم علمه. انظر عمدة القاري (٢٧٦/١٩) العيني.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨٢/٤) في كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا -ﷺ- على جميع الخلائق ح(٢٢٧٨).

مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ-ﷻ-» [١].

فقوله -ﷺ- «لاَ تُخَيِّرُونِي» أي: لا تفضلوني ولا تجعلوني خيراً من موسى-عليه السلام-، قيل: هو -ﷺ- أفضل المخلوقات، فلم نهى عن التفضيل؟ وأجيب عن ذلك بِخَمْسَةِ أَوْجُهٍ:

الأوَّل: أنه -ﷺ- قاله قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، فَلَمَّا عَلِمَ أَخْبَرَ بِهِ.

وَالثَّاني: أنه قَالَ ذلك أَدَبًا وَتَوَاضُعًا.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ النَّهْيَ عن التفضيل إِنَّمَا هُوَ عَنْ تَفْضِيلٍ يُؤَدِّي إِلَى تَنْقِيصِ الْمَفْضُولِ.

وَالرَّابِعُ: إِنَّمَا نَهَى عَنْ تَفْضِيلٍ يُؤَدِّي إِلَى الْخُصُومَةِ وَالْفِتْنَةِ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ فِي سَبَبِ الْحَدِيثِ.

وَالْخَامِسُ: أَنَّ النَّهْيَ مُخْتَصٌّ بِالتَّفْضِيلِ فِي نَفْسِ النُّبُوَّةِ فَلَا تَفَاضُلَ فِيهَا، وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ بِالْخَصَائِصِ وَفَضَائِلَ أُخْرَى[٢]، وذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ - تعالى- وَجْهًا أَنَّ التَّفْضِيلَ لَيْسَ إِلَيْكُمْ وَإِنَّمَا هُوَ إِلَى اللَّهِ -ﷻ-، وَعَلَيْكُمُ الِانْقِيَادُ لَهُ وَالتَّسْلِيمُ والإيمان به[٣].

قال الحكمي: (الْوَجْهُ الْأَوَّلُ مِنْ كَلَامِ النَّوَوِيِّ ضَعِيفٌ، وَالثَّانِي وَالْخَامِسُ فِيهِمَا نَظَرٌ، وَالرَّابِعُ قَرِيبٌ. قال الحكمي: وَيَقْوَى عِنْدِي الْوَجْهُ الثَّالِثُ مَعَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٥١/٣) في كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد ح(٣٢٢٧).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣٧/١٥-٣٨) النووي.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (٣٠٥/١) ابن كثير.

فَلَيْسَ التَّفْضِيلُ بالرَّأْيِ وَمُجَرَّدُ الْعَصَبِيَّةِ، وَلا بِمَا يَلْزَمُ مِنْهُ تَنَقُّصُ الْمَفْضُولِ وَالْحَطُّ مِنْ قَدْرِهِ، كُلُّ هَذَا وَمَا فِي مَعْنَاهُ مُحَرَّمٌ قَطْعًا مَنْهِيٌّ عَنْهُ شَرْعًا، وَهُوَ الَّذِي غَضِبَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ ذَلِكَ الأَنْصَارِيُّ -رضي الله عنه-، فَغَضِبَ النَّبِيُّ -ﷺ- وَنَهيُهُ عَنْ ذَلِكَ تَعْلِيمٌ عَامٌّ لِلأُمَّةِ وَزَجْرٌ بَلِيغٌ لِجَمِيعِهِمْ كَيْلا يَقَعَ ذَلِكَ أَوْ يَصْدُرُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَيَهْلَكُ. وَأَمَّا التَّفْضِيلُ بِمَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ -عز وجل- وَرَفَعَ بِهِ دَرَجَتَهُ وَنَوَّهَ فِي الْوَحْيِ بِشَرَفِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا شَهِدَ اللَّهُ - تعالى- بِهِ وَرَسُولِهِ -ﷺ- فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَالإِيمَانُ بِهِ وَالتَّصْدِيقُ وَالانْقِيَادُ لَهُ وَالتَّسْلِيمُ، فَلا يُؤْخَذُ عِلْمُ مَا يَخْتَصُّ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ -ﷺ-)[1].

وعليه فيكون نبينا محمد -ﷺ- هو أوّل من تنشق عنه الأرض وأول من يبعث، وهذا من جملة الفضائل التي تميز بها نبينا محمد -ﷺ- عن بقية الأنبياء.

المبحث السادس: أوّل من يكسى من العباد يوم القيامة.

ذكر فيما سبق أنه إذا أراد الله بعث الخلائق أمر إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث، فأول من ينشق عنه القبر ويبعث هو نبينا محمد-ﷺ-، بعدها يبعث بقية الخلائق، ويحشر العباد حفاة عراة غرلا[2]، ليس عليهم لباس، كأنهم خرجوا من بطون أمهاتهم. روى ابن عباس -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- قال: «**إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً**»، ثُمَّ قَالَ: **﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٤][3].

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (١١٢٣/٣-١١٢٤) الحكمي.

(٢) غرلاً: أي أقلف وهو الذي لم يختن، انظر فتح الباري (٣٨٤/١١) ابن حجر.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٢٢/٣) في كتاب الأنبياء، باب قول الله - تعالى-: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلا﴾ ح (٣١٧١).

واستعجبت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عندما سمعت قول النبي -ﷺ-: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً**» قالت: يَا رَسُولَ الله، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ -ﷺ-: «**يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**»(١).

بعد خروج العباد بهذه الهيئة يكسي الله عباده الصالحين ثياباً من الجنة، والعباد الطالحين يسربلهم بسرابيل القِطران، ونحوها من ملابس النار.وأوّل من يُكسى من الناس هم الأنبياء، وأول من يكسى منهم هو خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- روى ابن عباس-رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «**وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ**»(٢).

وذكر العلماء أنَّ سبب تقديم إبراهيم -عليه السلام- على غيره من الأنبياء بالكسوة يوم القيامة عدة أمور، وهي:

١/ أنه أوَّل من لبس السراويل مبالغة في التستر وحفاظاً لفرجه أن يماسّ مصلاه، فكان جزاءه تقديمه بالستر على بقية الخلائق.

٢/ أنه يحتمل أن قومه عندما أرادوا إلقاءه في النار وحرقه، جردوه أمام الناس من ملابسه، فأكرمه الله أن كساه أوّل الخلائق وعلى رؤوسهم يوم القيامة.

٣/ وقيل: أنه لم يكن في الأولين والآخرين أخوف من ابراهيم -عليه السلام- فتعجل له

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٩٤) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة. ح (٢٨٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/١٦٩١) في كتاب التفسير، باب ﴿وَكُنتُ عَلَيهِمۡ شَهِيدا مَّا دُمتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيهِمۡۚ﴾ ح (٤٣٤٩).

كسوته أماناً له ليطمئن قلبه[1].

ثم يكسى بعد ذلك الأنبياء - عليهم السلام-، ولا يلزم تقديم خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- بالكسوة يوم القيامة أن يكون أفضل من نبينا محمد -ﷺ- لأن المفضول قد يمتاز بشيء يُخصّ به ولا يلزم منه الفضيلة المطلقة[2]. ولا سيما أن النصوص الشرعية دلت على أفضلية النبي محمد -ﷺ- على سائر الأنبياء، ومنها ما رواه أَبو سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلا فَخْرَ**»[3].

المبحث السابع: أوّل من يكسى حلّة من النار.

مرَّ سابقاً أن العباد يخرجون من قبورهم حفاة عراة غرلاً، ثم بعد ذلك يكسون. وكل يكسى بحسب عمله في الدنيا، فمن كان من أهل اليمين؛ فكسوته من الجنة. ومن كان من أهل الشمال؛ فكسوته من النار. وذكر سالفاً أنَّ أول من يكسى من الصالحين هو خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام-، ثم نبينا محمد-ﷺ-.

وأما أوّل من يكسى من الطالحين حُلَّة من النار؛ فهو أوّل من عتى وتمرد واستكبر وهو إبليس. روى أنس بن مالك -رضي الله عنه- قَالَ: «**أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى حُلَّةً مِنَ النَّارِ إِبْلِيسُ، فَيَضَعُهَا عَلَى حَاجِبِيهِ وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ وَذُرِّيَّتُهُ مِنْ خَلْفَهُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا ثُبُورَاهُ، وَهُمْ يَنادُونَ: يَا ثُبُورَهُمْ، حَتَّى يَقِفُوا عَلَى النَّارِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا ثُبُورَاهُ، وَهُمْ**

(١) انظر التذكرة (٢/٥٣٤) القرطبي، وفتح الباري (١١/٣٨٤) ابن حجر.

(٢) انظر فتح الباري (٦/٣٩٠) ابن حجر.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٥٨٧) في كتاب المناقب عن رسول الله -ﷺ-، باب في فضل النبي -ﷺ- ح (٣٦١٥) وقال: (وهذا حديث حسن صحيح).

يَنادُونَ: يَا ثُبُورَهُمْ، فَيَقُالُ: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٤]» (١).

قال ابن القيم -رحمه الله-: (فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم، ولهذا كان في كتاب النبي -ﷺ- هرقل فإن توليت فإنّ عليك إثم الأريسيين (٢) والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع، ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذاباً، وهو أول من يكسى حلّة من النار، لأنه إمام كل كفر وشرك وشر، فما عصي الله إلا على يديه وبسببه) (٣).

فأوّل من يكسى من النّار حلة إبليس، وينادي بالثبور والهلاك فتخاطبه الملائكة وأتباعه: لا تدعو اليوم هلاكاً واحداً؛ فإنه لا يخلصكم، وادعوا ثبوراً وهلاكاً كثيراً، وهذا زيادة عذابٍ لهم وتنبيهاً على خلود عذابهم، وأنهم لا يجابون إلى ما يدعونه ولا ينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجي، وهذا القول ليس فقط لإبليس بل لجميع أتباعه من كفرة الإنس والجن (٤).

المبحث الثامن: أوّل من يفرّ من أبيه وأمه وأخيه وصاحبته.

يوم القيامة يوم عظيم، أهواله شديدة، وأحداثه جسيمة، سماه الله بأسماء كثيرة لعظم

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٨/١٨٨)، والإمام أحمد في مسنده (٣/٢٤٩) ح(١٣٦٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٩٢): رواه أحمد والبزار ورجالها رجال الصحيح غير علي بن زيد قد وثق.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٠٧٣) في كتاب الجهاد والسير، باب هل يرشد المسلم أهل الكتاب أو يعلمهم الكتاب ح (٢٧٧٨).
(٣) طريق الهجرتين (١/٦٠٥).
(٤) انظر روح المعاني (١٨/٢٤٤) الألوسي.

شأنه وما يحدث فيه من أمور جسام، تجعل الولدان شيباً، قال - تعالى-: ﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا**﴾ [المزمل: ١٧]. ولشدة هول هذا اليوم، فإن كل إنسان يهتم بنفسه ولا يلتفت إلى غيره، ويفر من أحب الناس إليه وأقربهم منه، فيفر من أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه. قال - تعالى-: ﴿**فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

وأول من يفر من أبيه يوم القيامة هو خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- وأول من يفر من ابنه نوح -عليه السلام-، وأول من يفر من امرأته لوط -عليه السلام-، وأول من يفر من أخيه قابيل، وأول من يفر من أمه النبي-صلى الله عليه وسلم-.

ذكر الضحاك عن ابن عباس-رضي الله عنه- قَالَ: يَفِرُّ قَابِيلُ مِنْ أَخِيهِ هَابِيلَ، وَيَفِرُّ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم- مِنْ أُمِّهِ، وَإِبْرَاهِيمُ -عليه السلام- مِنْ أَبِيهِ، وَنُوحٌ -عليه السلام- مِنَ ابْنِهِ، وَلُوطٌ مِنَ امْرَأَتِهِ، وَآدَمُ مِنْ سَوْأَةِ بَنِيهِ[1].

وَقَالَ الْحَسَنُ -رضي الله عنه-: أَوَّلُ مَنْ يَفِرُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَبِيهِ: إِبْرَاهِيمُ، وَأَوَّلُ مَنْ يَفِرُّ مِنَ ابْنِهِ نُوحٌ، وَأَوَّلُ مَنْ يَفِرُّ مِنَ امْرَأَتِهِ لُوطٌ[2].

وسبب فرارهم يوم القيامة؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل، وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه عندما يطلب من أولي العزم الشفاعة العظمى عند الله لأهل الموقف يعتذرون ويقول كل واحد منهم نفسي، نفسي، لا أسأله اليوم إلا نفسي[3] حتى تصل

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (٢٢٥/١٩) القرطبي.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن (٢٢٥/١٩) القرطبي.
(٣) حديث الشفاعة أخرجه البخاري في صحيحه (١٢١٥/٣) في كتاب الأنبياء، باب قول الله – تعالى-: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ ح (٣١٦٢) . وسيأتي مطولاً في مبحث أول من يشفع يوم القيامة.

إلى نبينا محمد -ﷺ- [١].

فموقف يوم القيامة عظيم، ويصبح كل امرأ شأنه نفسه فقط، مصداقاً لقوله - تعالى-: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

المبحث التاسع: أوَّل شافع وأول مشفّع.

في يوم القيامة موقف عظيم، يجمع الله -عز وجل- فيه جميع الخلائق من أولهم لآخرهم في صعيد واحد وتدنو الشمس من رؤوسهم، ويظل الناس في هذا الموقف واقفين وفي زحام شديد، والعطش قد بلغ بهم مبلغه، والعرق يأخذهم على قدر أعمالهم، فمنهم من لا يعرق، ومنهم من يبلغ العرق إلى كعبيه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً [٢]. روى أبو هريرة -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ: «**يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ**» [٣].

وعندما يطول بالخلائق الوقوف، يبدأون يبحثون عن أصحاب الرتب العالية، والمنازل الشريفة ليشفعوا لهم عند ربهم؛ ليفصل بين الناس وينزل -سبحانه وتعالى- للفصل والحساب. فأول من يذهب الناس إليه هو أبيهم آدم -عليه السلام- ليقوم بهذه المهمة فيعتذر، ثم يذهبون إلى نوح -عليه السلام- فيعتذر، ثم يذهبون إلى إبراهيم -عليه السلام- فيعتذر،

---

(١) انظر زاد المسير في علم التفسير (٤٠٣/٤) ابن الجوزي.

(٢) أي يصل إلى فيه وأذنيه، فيكون له بمنزلة اللّجام من الحيوانات. انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (١٨/٤) محمد الصديقي الشافعي.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٩٣/٥) في كتاب الرِّقاق، باب قول الله - تعالى-: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ح (٦١٦٧).

ثم يذهبون إلى موسى -عليه السلام- فيعتذر، ثم يذهبون إلى عيسى -عليه السلام- فيعتذر، وهم في كل مرَّة يذكِّرونهم بأفضالهم وإكرام الله لهم، ويعتذرون لهم بسبب تذكرهم لخطاياهم التي أصابوها فيستحون من ربهم، إلا نبي الله عيسى -عليه السلام- فإنه لا يذكر ذنباً، ولكنه يُحيل الناسَ إلى محمد -ﷺ- فهو عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. عندها يجيبهم قائلاً: أنا لها، فينطلق ويستأذن على ربه، فيؤذن له، فيقوم بين يدي المولى -سبحانه وتعالى- فيحمده بمحامد يلهمه الله إياها، ويخر لله ساجداً، فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فيشفع نبينا محمد -ﷺ- في ذلك الموقف. ويدل على ذلك حديث الشفاعة الذي رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- فقَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبيِّ -ﷺ- فِي دَعْوَةٍ، **«فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً»**

وَقَالَ: **"أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ ممَّ ذاك؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسِ: أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الجَنَّةَ، أَلاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغَنَا؟ فَقُالُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنه نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ**

الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا، أَلاَ تَشْفَعُ لَنَا عند رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ – فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ – نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ

مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ - أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[1].

فهذا الحديث يثبت الشفاعة العظمى، وأنَّ النبي -ﷺ- أول شافع وأول مشفّع روى أَبو هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: قَالَ رسول الله -ﷺ-: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم القيامة، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**»[2].

وهذه الشفاعة العظمى كما ذكر الجمهور، هي المقصودة في قوله - تعالى-: ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا**﴾ [الإسراء: ٧٩]. فالمقام المحمود هو: الذي يقومه النبي -ﷺ- ليريحهم من كرب الموقف[3].

وقد أمرنا نبينا محمد -ﷺ- إذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه: «**اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ القَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَه**»[4]. فمن قال هذا الدعاء بعد النداء؛ حلت له شفاعة النبي -

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٢١٥/٣) في كتاب الأنبياء، باب قول الله - تعالى-: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ح (٣١٦٢).

(٢) سبق تخريجه، انظر ص (١٢).

(٣) انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤٣/١٥-١٤٤) الطبري.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٢/١) في كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء ح (٥٨٩).

ﷺ- . وللنبي -ﷺ- يوم القيامة ثلاث شفاعات خاصة به، وهي:

الأولى: الشفاعة العظمى، وهي التي ذكرت آنفاً.

الثانية: الشفاعة لأهل الجنة ليدخلوا الجنة. وسيأتي الحديث عنها(١).

الثالثة: الشفاعة في تخفيف عذاب عمه أبي طالب، فيشفع لـه فتقبل شفاعته، فيخرجه بها إلى ضحضاح من نار يغطي قدميه يغلي لهما دماغه(٢).

كما أنه إضافة إلى تشريفه -ﷺ- يَوْمَ الْقِيَامَةِ بالشفاعة العظمى كان له تَشْرِيفَاتٌ لا يُشْرِكُهُ ولَا يُسَاوِيهِ فِيهَا أَحَدٌ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَيُبْعَثُ رَاكِبًا إِلَى الْمَحْشَرِ، وَلَهُ اللِّوَاءُ الَّذِي آدَمُ -عليه السلام- فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِهِ، وَلَهُ الْحَوْضُ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَوْقِفِ أَكْثَرُ وَارِدًا مِنْهُ(٣).

المبحث العاشر: أوّل من يؤذن له يوم القيامة بالسجود.

عندما يبعث النّاس من قبورهم يجمعون في أرض المحشر للحساب والجزاء، لا تكون أفعالهم اختيارية، يفعلون ما يشاءون وإنما يتبعون ما يؤمرون بـه، قـال - تعـالى-: **﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾** [طه: ١٠٨]. ولا يتكلمون إلا بعد الإذن من الله، قال - تعالى-: **﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾** [النبإ: ٣٨]. وبعد أن يطلب الناس من نبينا محمد -ﷺ- الشفاعة العظمى لأهل الموقف، يأتي -ﷺ-

(١) انظر ص (٣٣).
(٢) انظر النهاية في الملاحم والفتن (٣١٤/٢-٣١٥) ابن كثير، وشرح العقيدة الطحاوية (٢٨٢/١-٢٩٠) أبو العز الحنفي.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (٥٦/٣) ابن كثير.

ويستأذن على الله -عز وجل- فيؤذن له بالسجود، فيسجد لله -عز وجل- ويحمده بالمحامد التي لا يقدر عليها إلا أن يلهمه الله، فيكون النبي -صلى الله عليه وسلم- أول من يؤذن له بالسجود. كما روى أبو الدَّرْدَاءِ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بالسُّجُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ، فَأَنْظُرَ إِلَى بَيْنِ يَدَيَّ، فَأَعْرِفَ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ، وَمِنْ خَلْفِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ يَمِينِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ شِمَالِي مِثْلُ ذَلِكَ " فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَعْرِفُ أُمَّتَكَ مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ فِيمَا بَيْنَ نُوحٍ إِلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: "هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ...** »[1].

وهذا الشرف خاص بنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- فمن خصائصه أنه أول من يؤذن له بالسجود فيسجد بين يدي الله -عز وجل-.

المبحث الحادي عشر: أوّل من يحاسب من الأمم يوم القيامة.

بعدما يشفع نبي الرحمة محمد -صلى الله عليه وسلم- ويقبل الله شفاعته، يأتي الرب -سبحانه وتعالى- للفصل بين العباد في موقف مهيب عظيم، تحضره الملائكة، ويبدأ مشهد الحساب والجزاء، وتوزّع صحائف الأعمال على العباد، قال - تعالى-: ﴿**وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٦٨]. ويقوم الأشهاد في ذلك اليوم؛ ليشهدوا على العباد بما كانوا يفعلون، ويقوم العباد صفوفاً للعرض على الواحد القهار، قال - تعالى-: ﴿**وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ**

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٥) ح (٢١٧٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧/٣) ح (٢٧٤٥)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤٤/١٠) وقال: (ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو ضعيف وقد وثق).

صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]. ويبدأ مشهد المحاسبة العظيم، وأول من يحاسب من الأمم هي أمة محمد -ﷺ-، وهذه فضيلة من فضائل هذه الأمة. روى أبو نَضْرَةَ، فَقَالَ: خَطَبَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى مِنْبَرِ الْبَصْرَةِ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ إِلا لَهُ دَعْوَةٌ قَدْ تَنَجَّزَهَا فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي قَدْ اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي، وَأَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَلا فَخْرَ، ... -إلى أن قال-، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ -تَبَارَكَ وَ- تعالى- أَنْ يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ أَحْمَدُ وَأُمَّتُهُ؟ فَنَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ، نَحْنُ آخِرُ الأُمَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، فَتُفْرَجُ لَنَا الأُمَمُ عَنْ طَرِيقِنَا، فَنَمْضِي غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الطُّهُورِ...**»[(١)].

قال السندي: (والمراد أنَّ هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية، فهي سابقة إياهم في الآخرة؛ بأنهم أوّل من يحشر، وأوّل من يحاسب، وأوّل من يقضى بينهم ...)[(٢)].

وجاء في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- في الصحيحين ما يؤيد ذلك حيث روى ربيعة بن الحارث أنه سمع أبا هريرة -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ...**»[(٣)].

قال ابن حجر: (والمراد أنّ هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨١/١)، وأبو يعلى في مسنده (٢١٦/٤)، وابن ماجه في سننه مختصراً (١٤٣٤/٢) في كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد -ﷺ-ح (٤٢٩٠).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (٨٦/٣) نور الدين السندي.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٩/١) في كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة لقول الله - تعالى-: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ ح (٨٣٦).

الماضية، فهي سابقة لهم في الآخرة، بأنهم أوّل من يحشر، وأوّل من يحاسب، وأوّل من يقضى بينهم، وأوّل من يدخل الجنّة)[1].

المبحث الثاني عشر: أوّل ما يقضى بين الناس.

لعظم حرمة الدماء عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- فإنَّ أول ما يقضى فيه بين العباد، هي تلك الدماء التي سُفكت من غير حق. روى عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ**»[2].

قال النووي -رحمه الله-: (فِيهِ تَغْلِيظُ أَمْرِ الدِّمَاءِ، وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُقْضَى فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا لِعِظَمِ أَمْرِهَا وَكَثِيرِ خَطَرِهَا، وَلَيْسَ هَذَا الْحَدِيثُ مُخَالِفًا لِلْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ فِي السُّنَنِ «**أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلاتُهُ**» لأَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ الثَّاني فِيمَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ - تعالى- وَأَمَّا حَدِيثُ الْبَابِ فَهُوَ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ)[3].

وقال ابن حجر: (وَفِي الْحَدِيثِ عِظَمُ أَمْرِ الدَّمِ، فَإِنَّ الْبُدَاءَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْأَهَمِّ، وَالذَّنْبُ يَعْظُمُ بِحَسَبِ عِظَمِ الْمَفْسَدَةِ وَتَفْوِيتِ الْمَصْلَحَةِ، وَإِعْدَامُ الْبِنْيَةِ الإِنْسَانِيَّةِ غَايَةٌ فِي ذَلِكَ)[4].

وروى ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: «**يَجِيءُ الْمَقْتُولُ**

(١) فتح الباري (٢/٣٥٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/١٣٠٤) في كتاب القسامة والمحاربين، باب المجازاة بالدماء في الآخرة وأنها أوَّل ما يقضى فيه بين الناس ح (١٦٧٨).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٦٧).
(٤) فتح الباري (١١/٣٩٧).

بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ[(١)] دَمًا فَيَقُولُ: يــارب، سَلْ هذا فِيمَ قَتَلَنِي؟ حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ الْعَرْشِ»[(٢)].

ومعنى (حَتَّى يُدْنِيه مِنَ الْعَرْشِ): أي يقرب الْمَقْتُولُ الْقَاتِلَ مِنَ الْعَرْشِ وَكَأَنَّهُ كِنَايَــةٌ عَنِ اسْتِقْصَاءِ الْمَقْتُولِ فِي طَلَبِ ثَأْرِهِ وَعَنِ الْمُبَالَغَةِ فِي إِرْضَاءِ اللَّهِ إِيَّاهُ بِعَدْلِهِ[(٣)].

والاستخفاف بالدماء المعصومة وحرمتها وسفكها بغير حق دليل على الجهل والبعد عن شرع الله وهذا ما وقع من بعض السفهاء في زماننا من قتل المســلمين واســتباحة دمائهم بغير حق .

المبحث الثالث عشر: أوّل من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة.

إذا بدأ مشهد الحساب يوم القيامة، فإن أوّل ما يقضى بين العباد في الدماء كما مرَّ سابقاً، وأوّل النّاس الذي يقضى بينهم في ذلك اليوم هو علي بن أبي طالــب -رضي الله عنه- فيجثو بين يدي الله للخصومة، روى قيس بن عُبادٍ عن عَلِيٌّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- قَالَ: **«أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرحمن لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وقَالَ قيسُ بـــن عُبــادٍ: وفيهم أنــزِلَتْ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] قال: هم الَّذِينَ تبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: حَمْزَةُ، وَعَلِيٌّ، وَعُبَيْدَةُ أو أبوَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ»[(٤)].**

---

(١) تشخب دماً: أيْ تَسيلُ دَمًا. انظر تحفة الأحوذي (٣٠٥/٨) المباركفوري.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٤/١) ح (٢٦٨٣)، والترمذي في ســنه (٢٤٠/٥) في كتــاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء ح (٣٠٢٩)، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٢٦٩٧).

(٣) انظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٣٠٥/٨) المباركفوري.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١٤٥٨/٤) في كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل ح (٣٧٤٧).

فعلي -رضي الله عنه- أوّل من يجثو بين يدي الله للخصومة في الدماء، وكان قيس بن عُبـاد يُقسم أن قوله - تعالى-: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ نـزلت في خصومة علي مع الوليد بن عتبة في معركة بدر.

فحين التقى جيش الإيمان والكفر برز عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بـن عتبة، ودعوا إلى المبارزة، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) بالخروج لهم.

فبارز عبيدة عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد بن عتبة. فأما حمزة لم يمهل شيبة فقتله، وأما علي فلم يمهل الوليد فقتله، واختلف عبيدة وعتبة بينـهما بضـربتين كلاهما أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فقتلاه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى المسلمين. ثم ما لبث أن استشهد عتبة متأثراً بجراحه(1).

فهذه الخصومة تكون بين يدي الله -عز وجل- يوم القيامة ويفصل فيها بـ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ...﴾ [الحج: ١٩-٢٠]. أَيْ فُصِّلَتْ لَهُمْ مُقَطَّعَاتٌ من النار، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مِنْ نُحَاسٍ، وَهُوَ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ حَرَارَةً إِذَا حَمِيَ فيُصَبُّ على رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ فيُصْهَرُ ويذيب مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الشَّحْمِ وَالْأَمْعَـاءِ وكذا الْجُلُودُ تَذُوبُ وتَتَسَاقَطَ. وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ يُضْرَبُونَ بِهَا، فَيَقَعُ كُلُّ عُضْـوٍ عَلَى حِيَالِهِ فَيَدْعُونَ بِالثُّبُورِ. وكُلّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ النار ومن حرقهـا أُعِيـدُوا

(١) انظر البداية والنهاية (٣/٢٧٣-٢٧٤) ابن كثير، وجامع البيان عن تأويل آي القـرآن (١٧/١٣١) الطبري.

فِيها[١].

المبحث الرابع عشر: أوّل الأعمال التي يحاسب عليها المرء.

الحقوق التي يحاسب الله بها العباد، حقوق بينهم وبين الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وحقوق بينهم وبين العباد. فأما الحقوق التي بين العباد بعضهم مع بعض، فإنَّ أوّل ما يحاسب عليه العبد منها يوم القيامة، هي: الدماء -كما مرَّ في المبحث السابق-، وأما الحقوق التي بين العباد وبين الله -عَزَّ وَجَلَّ- فإن أوّل ما يحاسب عليه العبد منها، هي: الصلاة. فإن صلحت صلاته؛ أفلح ونجا، وإن فسدت؛ خاب وهلك. روى أبو هريرة -رضي الله عنه- قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْئاً، قَالَ الرَّبُّ -تبارك وتعالى-: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ**»[٢]. وهذا يؤكد أهمية أداء الصلاة والمحافظة عليها؛ فهي رأس الأعمال الصالحة. قال - تعالى-: ﴿**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وتوعد الله بالويل كل مضيع ومفرط في الصلاة، فقال - تعالى-: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ**﴾ [الماعون: ٤-٧].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢١٤/) ابن كثير.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢/٢٧٠) في أبواب الصلاة، باب ما جاء أن أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة والصلاة ح (٤١٣). وقال الترمذي (حديث حسن غريب)، والنسائي في سننه (١/٢٣٢) في كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة ح (٤٦٥). وقال شعيب الأرنؤوط: (إسناده صحيح على شرط مسلم).

فالله -عَجَّلَ- توعد: (الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ وَقَدِ الْتَزَمُوا بِهَا ثُمَّ هُمْ عَنْهَا سَاهُونَ، إِمَّا عَنْ فِعْلِهَا بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ-رضي الله عنهما-، وَإِمَّا عَنْ فِعْلِهَا فِي الْوَقْتِ الْمُقَدَّرِ لَهَا شَرْعًا فَيُخْرِجُهَا عَنْ وَقْتِهَا بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا قَالَهُ مَسْرُوقٌ وأبو الضحى. وقال عطاء بن دينار: الحمد لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: (عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ) وَلَمْ يَقِلْ فِي صَلاتِهِمْ سَاهُونَ، وَإِمَّا عَنْ وَقْتِهَا الأَوَّلِ فَيُؤَخِّرُونَهَا إِلَى آخِرِهِ دَائِمًا أَوْ غَالِبًا، وَإِمَّا عَنْ أَدَائِهَا بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَإِمَّا عَنِ الْخُشُوعِ فِيهَا وَالتَّدَبُّرِ لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله ولكل مَنِ اتَّصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قِسْطٌ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ، وَمَنِ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ فَقَدْ تم له نَصِيبُهُ مِنْهَا وَكَمُلَ لَهُ النِّفَاقُ الْعَمَلِيُّ[1].

كما أنّ الحديث فيه تأكيد على أهمية صلاة النافلة، حيث تأتي اليوم مكملة ورافعة للنقص الذي يكون في صلاة الفرض فتجبر بها.

المبحث الخامس عشر: أوّل ما يتكلم من الإنسان يوم القيامة.

لما يعاين الكفّار العذاب الشديد الذي أعده الله لهم، ويحاجهم الله (- عز وجل-) بالنعم التي أعطاهم إياها، ويقررهم بذنوبهم التي عملوها في الدنيا، يلجؤون عندئذ إلى التكذيب والإنكار، ويكذّبون الأشهاد حين يشهدون

عليهم، عندها يقيم الله عليهم شاهداً من أنفسهم فيختم على أفواههم وتنطق أعضاءهم شاهدة عليهم، وأوّل من ينطق فخذه ثم بقية أعضاءه، عندئذ يقول لأعضائه: بعداً لكنّ وسحقاً عنكنّ كنت أجادل[2]، ودليل ذلك ما رواه أبو هُرَيرَةَ قال: (**قالوا: يا رسُولَ اللّهِ هل نرَى ربَّنا يوم القِيامَةِ؟ قال: هل تُضارُّونَ في رُؤيَةِ**

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٤/٥٥٥) ابن كثير.

(٢) هذا جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٨٠) في كتاب الزهد ح(٢٩٦٩).

الشَّمسِ في الظَّهيرَةِ لَيسَتْ في سحَابَةٍ؟ قالوا: لا، قال فهَلْ تُضارُّونَ في رُؤْيةِ الْقمَر لَيْلَةَ الْبدْرِ ليس في سحَابَةٍ؟ قالوا: لا، قال: فوَالَّذِي نفْسي بيده لا تُضارُّونَ في رُؤْيةِ ربِّكُمْ إلا كما تُضارُّونَ في رُؤْيةِ أحَدِهِمَا، قال: فيَلْقَى الْعبْدَ فيقول: أيْ فُل[1]، ألَمْ أكْرِمْكَ وأُسَوِّدْكَ وأُزَوِّجْكَ وأُسَخِّرْ لك الْخيْلَ والإِبلَ وأَذَرْكَ ترْأَسُ وتَرْبَعُ فيقول: بلَى، قال: فيقول: أفَظَنَنْتَ أنَّكَ مُلاقِيَّ، فيقول: لا، فيقول: فإِنِّي أنْسَاكَ كما نسِيتَنِي، ثمَّ يلْقَى الثّانيَ، فيقول: أيْ فلْ، ألَمْ أكْرِمْكَ وَأسَوِّدْكَ وَأزَوِّجْكَ وَأسَخِّرْ لك الخَيْلَ وَالْإبلَ وَأَذَركَ تَرأَسُ وَتَربَعُ، فيقول: بلَى أيْ ربِّ، فيقول: أَفَظَنَنتَ أنَّكَ ملَاقِيَّ، فيقول: لا، فيقول: فَإنِّي أَنسَاكَ كما نَسيتَنِي ثمَّ يَلقَى الثَّالثَ، فيقول له مثْلَ ذلك، فيقول: يا ربِّ آمَنتُ بكَ وَبكِتَابكَ وَبرسُلِكَ وَصَلَّيتُ وَصمْتُ وَتَصَدَّقتُ ويثنى بخَيْرٍ ما استَطَاعَ، فيقول: ها هنا إذًا، قال: ثمَّ يقَالُ له: الآنَ نَبعَثُ شَاهدَنَا عَلَيكَ ويَتَفكَّرُ في نَفْسهِ من ذا الذي يَشهَدُ علَيَّ فَيخْتَمُ على فيه، ويقال: لفَخِذِهِ وَلَحْمهِ وَعظَامِهِ أنطقي فَتَنْطقُ فَخِذهُ وَلَحْمهُ وَعِظَامهُ بعَمَلِهِ، وَذَلكَ لِيعْذِرَ من نَفْسهِ، وَذَلكَ الْمنَافِقُ وَذَلكَ الذي يَسخَطُ الله عليه) [2].

ففخذ الإنسان أوّل من يشهد عليه يوم القيامة بما عمل، حين يختم على أفواههم وتنطق أعضاءهم، وهذا من المخاصمات التي تكون يوم القيامة، أن يخاصم المرء أعضاءه

---

(١) معناه: يا فلان وهو ترخيم على خلاف القياس، وقيل: وهي لغة بمعنى فلان. انظر شرح النووي على صحيح مسلم(١٨/١٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه(٤/٢٢٧٩) في كتاب الزهد والرقائق، ح(٢٩٦٨).

المبحث السادس عشر: أوّل من تسعر بهم النّار.

كل عمل صالح يعمله الإنسان، لا يريد به وجه الله؛ فإنه يكون وبالاً على صحبه يوم القيامة. قال - تعالى-: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [هود: ١٥-١٦]. والله أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معه غيره في أي عمل تركه وشركه. روى أَبو هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-، فقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «**قَالَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتعالى-: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]. فإذا أراد الإنسان بعمله الدنيا فهذا نوع من أنواع الشرك في النية والقصد، وهو ينافي كمال التوحيد ويحبط العمل.

ولأهمية الإخلاص وإرادة وجه الله في كل عمل يعمله الإنسان ولا سيما الأعمال الصالحة، جاء التحذير الشديد في الكتاب والسنة من أن يصرف المرء نيته لغير الله، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- عقوبة من فعل ذلك في الآخرة، بأنَّ أوّل من تسعّر بهم النّار ثلاثة كلهم أدوا أعمال ظاهرها الصلاح والخير العظيم، وباطنها صرفت هذه الأعمال لغيره فاستحقوا بذلك أعظم عقوبة.

روى أبو هريرة -رضي الله عنه- فقال: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم-، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٩/٤) في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله ح (٢٩٨٥).

اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1].

وفي الحديث الذي رواه الترمذي جاء مصرحاً بأن أولئك النفر الثلاثة أوذل من تُسعّر بهم النار. فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: حدثني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- **«أَنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وتعالى- إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَنزِلُ إِلَى العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ، وَرَجُلٌ يقتتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٥١٣/٣) في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ح (١٩٠٥).

حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ – تعالى-: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بالجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ – تعالى- لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ»، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(1).

فأوّل من تسعّر بهم النّار والعياذ بالله من قصد بعمله غير الله، وهم ثلاثة: رجل جمع القرآن وقرأه؛ ليقال قارئ، ورجل قتل في سبيل الله؛ ليقال جرئٌ وشجاع، ورجل كثير المال جواد به؛ ليقال جواد.

فيجب على المرء صرف عمله كله لله قال – تعالى-: **﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾** [الكهف: ١١٠].

قال ابن تيمية –رحمه الله-: (الْعَمَل الصَّالح هُوَ الإحسان وَهُوَ فعل الْحَسَنَات وَهُوَ مَا أمْر الله بِهِ وَالَّذِي أمْر الله بِهِ هُوَ الَّذِي شَرعه الله وَهُوَ الْمُوَافق لكتاب الله وَسنة رَسُوله فقد اخبر الله – تعالى- أنه من أخلص قَصده لله وَكَانَ محسنا فِي عمله فَإِنَّهُ

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥٩٢/٤) في كتاب الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة ح (٢٣٨٢) وقال الترمذي: (هذا حديث حسن غريب).

مُسْتَحقّ للثَّواب سَالم من الْعقَاب. وَلِهَذَا كَانَ أئمة السّلف -رَحِمهم الله- يجمعُون هذَيْن الأصلين كَقَوْل الفضيل بن عِيَاض فِي قَوْله - تعالى-: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قَالَ أخلصه وأصوبه فَقيل لَهُ: يَا أبا علي مَا أخلصه وأصوبه؟ فَقَالَ: إن الْعَمَل إذا كَانَ صَوَابا وَلم يكن خَالِصا لم يقبل وإذا كَانَ خَالِصا وَلم يكن صَوَابا لم يقبل حَتَّى يكون خَالِصا صَوَابا، والخالص أن يكون لله وَالصَّوَاب أن يكون على السّنة) [(١)].

المبحث السابع عشر: أوّل ثلاثة يدخلون النّار.

كما أنَّ هناك نفر هم أوّل من تسعر بهم النّار، فهناك أيضاً ثلاثة هم أوّل من يدخلون النّار، روى عامر بن العقيلي أَنَّ أَبَاهُ، أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «**عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَأَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ، فَأَمَّا أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: فَالشَّهِيدُ، وَعَبْدٌ أدى حق الله وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَفقير مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، وَأَمَّا أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: فَأَمِيرٌ مُتسَلِّطٌ، وَذُو ثَرْوَةٍ مِنْ الْمَالِ لا يُعطي حَقَّ مَالِهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ**»[(٢)].

فيجمع بين هذا الحديث وبين حديث «**أَوَّلُ من تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ**»[(٣)]: (أن أولئك النفر الثلاثة أول من يدخل النار، وتسعير النار أخص من دخولها، فإن تسعيرها يقتضي

---

(١) الاستقامة (٣٠٩/٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٢٣/١٦) ح (٧٢٤٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨٢/٤) ح (٧٠١٩)، وابن شيبة في مصنفه (٢٠٥/٤) ح (١٩٣٣٥) وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان: (إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله ثقات رجال الصحيح غير علي بن المديني فمن رجال البخاري).

(٣) سبق تخريجه انظر ص(٢٨/٢٧).

تلهيبها وإيقادها، وهذا قدر زائد على مجر الدخول)[1].

فبعدما تسعّر النّار بمن ذكروا سابقاً، يكون بعد ذلك الدخول. فأوّل من يدخلها هم هؤلاء الثلاثة الذين ذكروا بأوصافهم دون أعيانهم، وأولهم «سلطان متسلِّطٌ» على رعيته بالجور والعسف والظلم، وثانيهم «ذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله» أي: الزكاة الواجبة في المال الذي بين يديه، وثالثهما «فقير فخور» أي: كثير الفخر وادعاء العظم[2].

المبحث الثامن عشر: أوَّل من يرد حوض النبي -ﷺ-.

من رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- بعباده المؤمنين يوم القيامة، ومن إكرام الله -عَزَّ وَجَلَّ- لنبيه محمد -ﷺ- أن جعل له حوضاً؛ يطفئ عطش وظمأ المؤمنين في هذا الموقف العصيب، فبعد طول الوقوف، ودنو الشمس من الرؤوس، وهول الموقف ورهبته، يحتاج المؤمنون إلى ما يذهب عنهم العناء، ويطمئن قلوبهم بعد الشدة وطول الموقف فيكرم الله عباده المؤمنين بالشرب من حوض نبيه محمد -ﷺ- شربةً لا يظمئون بعدها أبداً. وأوّل من يرد عليه فقراء المهاجرين عَنْ أَبِي سَلَّامٍ الحَبَشِيِّ، قَالَ: بَعَثَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ فَحُمِلْتُ عَلَى البَرِيدِ، قَالَ: فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ شَقَّ عَلَى مَرْكَبِي البَرِيدُ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَلَّامٍ مَا أَرَدْتُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ وَلَكِنْ بَلَغَنِي عَنْكَ حَدِيثٌ تُحَدِّثُهُ، عَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- فِي الحَوْضِ فَأَحْبَبْتُ أَنْ تُشَافِهَنِي بِهِ، قَالَ أَبُو سَلَّامٍ، حَدَّثَنِي ثَوْبَانُ، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ-، قَالَ: «**حَوْضِي مِنْ عَدَنَ إِلَى عَمَّانَ البَلْقَاءِ، مَاؤُهُ**

---

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار (٢٠٥/١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي .

(٢) انظر التيسير بشرح الجامع الصغير (١٣٠/٢) زين الدين عبد الرؤوف المناوي.

أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَكْوَابُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، أَوَّلُ النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، الشُّعْثُ رُءُوسًا، الدُّنْسُ ثِيَابًا الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ وَلَا تُفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السُّدَدِ[(١)]»[(٢)].

فأوّل من يرد الحوض هم فقراء المهاجرين الذين وصفهم النبي -ﷺ- بهذه الأوصاف وبعد أن يردوه، يرده غيرهم من المؤمنين فخصوا هم بالأولية، فلهم صفوه وفضل السبق إليه[(٣)].

المبحث التاسع عشر: أوّل من يُجيز الصراط.

أ- أوّل من يجيز الصراط من الخلائق.

بعدما يقضي الله بين الخلائق يأمر الله كل أمة أن تتبع معبودها فيتساقط الكفار في جهنم ومعبوداتهم الباطلة، ويبقى على أرض المحشر المؤمنون والمنافقون، فيأتي إليهم ربهم، فيقول لهم: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيعرفونه بساقه عندما يكشفها لهم. وعند ذلك يخر المؤمنون له سجداً، أما المنافقون فعندما يحاولون لا يستطيعون. قال – تعالى-: ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ [القلم: ٤٢]. بعد ذلك يضرب الصراط على متن جهنم، وهو دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، فيكون أوّل من يجيزه هو نبينا محمد-ﷺ-.

---

(١) جمع سدة، وهي: باب الدار، سمي بذلك؛ لأن المدخل يسد به، انظر تحفة الأحوذي (١١٥/٧) المباركفوري.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٦٢٩/٤) في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض (٢٤٤٤)، وقال: (هذا حديث غريب من هذا الوجه) والإمام أحمد في مسنده (٢٧٥/٥) ح (٢٢٤٢١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤٤٠/٣)ح(٣٦١٥).

(٣) انظر فيض القدير (٤٠٠/٣) المناوي.

روى أَبو هُرَيْرَةَ، فقَالَ: أنَّ النَاسَ قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُول اللَّه -ﷺ-: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ**» قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، «**فهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**» قَالَ: قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْس، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَر، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيت، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعوها أو مُنَافِقُوهَا -شك إبراهيم[1]-، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جاءنا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي صورَته الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصراط بين ظهري جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أنا وأمتي أَوَّلَ مَنْ يُجيزُها، ولايتكلم يومئذٍ إلا الرسل ودعوى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وفي جهنم كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هل رَأَيْتُمْ السَّعْدَانِ؟ " قَالُوا: نعم يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّه لاَ يَعْلَمُ ما قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فمِنْهُمُ المؤمن يبقى بعمله، أو المُوثقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ، أو المجازى أو نحوه ...**»[2].

ب- أوّل من يجيز الصراط من الأمم.

فأوَّل من يجيز الصراط نبي الهدى محمد -ﷺ- ثم الأنبياء بعده، ثم أمة محمد -ﷺ-، فهي أول أمة تجيز الصراط بعد الأنبياء، ودعوى الأنبياء يومئذ (اللهم سلّم سلّم)، وهم فقط من يؤذن لهم بالكلام.

---

(١) وهو أحد رواة الحديث، واسمه: إبراهيم بن سعيد روى عن ابن شهاب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٧٠٤) في كتاب التوحيد، باب قول الله - تعالى-: ﴿وُجُوه يَوۡمَئِذ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَة﴾ ح (٧٠٠٠)

ج- أوّل من يجيز الصراط من أمة محمد -ﷺ-.

وأوّل من يجيز الصراط من أمة محمد -ﷺ- هم فقراء المهاجرين. ثبت ذلك في حديث ثوبان مولى رسول الله -ﷺ- أنَّ حبراً من أحبار اليهود جاء يسأل النبي -ﷺ- يختبره عن بعض المسائل فجاء في حديثه: «فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله -ﷺ-: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ**» قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ قَالَ: «**فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ**» [(١)].

قال النووي -رحمه الله-: («**فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟**» هو بكسر الهمزة وبالزاي، ومعناه: جوازاً وعبوراً)[(٢)]. ففقراء المهاجرين أول من يعبر الصراط من أمة محمد ﷺ.

وبعد أن يجتاز المؤمنون الصراط يبشرون بالجنان؛ ليهدأ خوفهم وتطمئن قلوبهم وليذهب عنهم الروع الذي حصل لهم من مجاوزة الصراط. قال - تعالى-: ﴿**يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**﴾ [القلم: ٤٢].

المبحث العشرون: أوّل من يفتح له باب الجنّة.

بعد أن يعبر المؤمنون الصراط يُقَفُونَ على قنطرة[(٣)] بين الجنّة والنّار، ليهذّبوا وينزع ما في قلوبهم من غلّ ويتحاسبون لتصفى القلوب وتذهب الأحقاد، قال رسول الله -ﷺ-: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٢/١) في كتاب الحيض، باب صفة منيّ الرجل والمرأة، وأن الولد مخلوق من مائهما ح (٣١٥).

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٢٢٧/٣).

(٣) القنطرة هو: الجسر، وقيل ما ارتفع من البنيان. انظر لسان العرب(١١٨/٥) ابن منظور.

وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»(1).

بعد هذا التهذيب يتجه المؤمنون للجنة لدخولها فيجدون أبوابها مغلقة، عندها يهرعون إلى الأنبياء يطلبون منهم أن يشفعوا لهم عند رهم ليفتح أبواب الجنة لهم فيأتون آدم ويطلبون منه الشفاعة فيجيبهم بقوله: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم لست بصاحب ذلك ... وينتقل المؤمنون بين أولي العزم كما في الشفاعة العظمى يطلبون منهم الشفاعة عند رهم لفتح أبواب الجنة فينتهون عند خاتم الأنبياء محمد -ﷺ- فيقوم فيؤذن له فيشفع في فتح باب الجنة، فتقبل شفاعته ويتجه النبي -ﷺ- إلى باب الجنة فيستأذن، فيقول له خازن الجنة: من؟ فيقول: محمد بن عبدالله. فيرد عليه خازن الجنة ويقول: أمرت ألا أفتح الجنة لأحد قبلك. فيفتح له فيكون أول من يدخل.

روى حذيفة بن اليمان-رضي الله عنه- وأبو هريرة -رضي الله عنه- قالا: قال رسول الله -ﷺ-: **«يَجْمَعُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتعالى- النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى**

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٩٤) في كتاب الرِّقاق، باب القصاص يوم القيامة وهي ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ح (٦١٧٠).

مُوسَى -ﷺ- الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى -ﷺ-، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى -ﷺ-: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا -ﷺ-، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، ...»(١).

وفي حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال النبي -ﷺ- «**آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ**»(٢).

وشفاعة النبي -ﷺ- لأهل الجنة بفتح أبوابها لهم من الشفاعات الخاصة بالنبي -ﷺ-(٣).

المبحث الحادي والعشرون: أوّل الأمم دخولاً الجنّة.

بالرغم من أن أمة محمد -ﷺ- آخر الأمم، وأقصرها أعماراً فإنَّ الله -عز وجل- شَرَّفها واختصها بخصائص عن سائر الأمم، منها أنها أوّل من يدخل الجنة من الأمم -وسبق الإشارة إلى ذلك في مبحث سابق-(٤). ومصداق ذلك ما رواه أَبو هُرَيْرَةَ، فقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**نَحْنُ الآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللهُ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/١٨٦-١٨٧) في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ح (١٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/١٨٨) في كتاب الإيمان، باب في قول النبي -ﷺ- «أنا أوّل النّاس يشفع في الجنّة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً» ح (١٩٧).

(٣) انظر حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (١٣/٥٥) ابن القيم.

(٤) انظر مبحث أوّل من يحاسب من الأمم يوم القيامة.

لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ»[1]. فأمة محمد -ﷺ- أسبق الأمم في الفصل والقضاء، والحساب وفي الجواز على الصراط، وفي دخول الجنة، فهي أمة مباركة ببعثة نبي الهدى محمد -ﷺ- فيها، وهذا من فضل الله -عز وجل- على هذه الأمة.

المبحث الثاني والعشرون: أوّل ثلاثة يدخلون الجنّة.

أوّل الأمم دخولاً في الجنّة هم أمة محمد -ﷺ- وأوّل من يدخل منهم ثلاثة ذكروا بأوصافهم فهم: الشهيد، وعبد أدّى حق الله ونصح لسيده، وفقير متعفف ذو عيال، ودليل ذلك ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «**عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَأَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ، فَأَمَّا أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: فَالشَّهِيدُ، وَعَبْدٌ أدى حق الله وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَفقير مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**»[2].

وفي لفظ آخر عند الترمذي من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «**عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، شَهِيد، وَعَفِيفٌ، مُتَعَفِّفٌ، وَعَبْدٌ أحسن عبادة الله وَنَصَحَ لمواليه**»[3].

قال الطيبي: (أطلق الشهادة وقيد العفة والعبادة، يشعر بأنّ مطلق الشهادة أفضل منهما، فكيف إذا قرن بإخلاص ونصح، والوجه استغناء الشهادة عن التقييد، إذ لشرطها الإخلاص والنصح، والخصلتان مفتقرتان إليه فقيدهما وأطلقها)[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٨٥٤/٢) في كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ح (٨٥٥).

(٢) سبق تخريجه، انظر مبحث أوّل ثلاثة يدخلون النّار.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (١٧٦/٤) في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في ثواب الشهداء ح (١٦٤٢) وقال: (هذا حديث حسن) .

(٤) فيض القدير (٣١٢/٤) المناوي.

المبحث الثالث والعشرون: صفة أوّل زمرة تدخل الجنّة.

أوّل زمرة تدخل الجنّة لها صفة خاصة تمتاز بها عن غيرها، هذه الصفة وردت في الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ**»(١).

والزمرة: هي الجماعة. وجمال وجوههم ونضارتها شبهت بالقمر حال اكتماله بدراً وفي ذلك يقول ابن القيم في نونيته:

هذا وأوّل زمرة فوجوههم كالبدر ليل السبت بعد ثمان

السابقون هم وقد كانوا هنا أيضاً أولي سبق إلى الإحسان(٢)

المبحث الرابع والعشرون: أوّل طعام أهل الجنّة.

لما يكرم الله عباده المؤمنين ويتفضل عليهم برحمته فيدخلهم الجنة يكون لهم ضيافة خاصة تذهب عنهم عناء المحشر وأهواله، هذه الضيافة هي: (زيادة كبد حوت) ثبت ذلك في الحديث الذي رواه ثوبان مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**إِنَّ اسْمِي**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١١٨٦/٣) في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ح (٣٠٧٤)، ومسلم في صحيحه (٢١٧٨/٤) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة ح (٢٨٣٤).

(٢) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم (٤٨٠/٢) أحمد بن إبراهيم بن عيسى.

مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي»، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، فَنَكَتَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- بِعُودٍ مَعَهُ، فَقَالَ: «**سَلْ**» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ**» قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ قَالَ: «**فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ**» قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ[1] حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «**زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ**»، قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: «**يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا**» قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً**» قَالَ: صَدَقْتَ...»[2].

فأوّل طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد الحوت، وهي: القطعة المتفردة المعلقة في الكبد. وهي في المطعم غاية في اللذة. ويقال: أنها أهنأ طعام وأمرأه[3].

* * *

---

(١) تحفتهم، بإسكان الحاء، وفتحها لغتان: وهي ما يهدى إلى الرجل ويخص به ويلاطف. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٢٢٧/٣) النووي.

(٢) سبق تخريجه، انظر مبحث أول من يجيز الصراط.

(٣) انظر فتح الباري (٢٧٣/٧) ابن حجر.

الفصل الثاني
الأواخر يوم القيامة

كما أنّ هناك أوائل يوم القيامة يتصدرون قبل الخلق في كل موقف، فكذلك هناك أواخر، أخّرهم عملهم في الدنيا من اللحوق في ركب الأوائل يوم الميعاد.

وفي هذا الفصل سأعرض الأواخر في جميع ما يتعلق باليوم الأخر من مشاهد وأهوال ونعيم وفق المباحث التالية:

المبحث الأول: آخر أشراط الساعة الكبرى.

آخر أشراط الساعة الكبرى والتي بظهورها تقوم الساعة وتنتهي هذه الحياة، هي: خروج نار عظيمة من أرض اليمن، من قعرة عدن. ثبت ذلك في حديث حذيفة بن أسيد والذي ذكر فيه أشراط الساعة الكبرى وجاء فيه قول النبي-ﷺ-: «**وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن، تطرد النّاس إلى محشرهم**»[١].

فجاء التصريح بأنَّ آخر أشراط الساعة هي نار تخرج من اليمن. وفي الحديث الذي رواه أنس -رضي الله عنه- أن عبدالله بن سلام لما أسلم سأل النبي -ﷺ- عن مسائل، ومنها: ما أول أشراط الساعة؟ فقال النبي -ﷺ-: «**أما أوَّل أشراط الساعة، فنار تحشر**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٢٥) في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ح (٢٩٠١).

النّاس من المشرق إلى المغرب»[1].

والجمع بين ما جاء من روايات أن هذه النّار هي آخر أشراط الساعة الكـبرى، وما جاء أنها أوّل أشراط الساعة:

أن آخريتها باعتبار ما ذُكَر معها من الآيات الواردة في الحـديث وهـي خـروج الشمس من مغربها والدابة وغيرها من أشراط، وأوليتها باعتبار أنها أوَّل الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلاً، فهي أولوية باعتبار قيام الساعة حيث على وشـك أن تقوم وبانتهاء هذه الآيات يقع النفخ في الصور، بخلاف ما ذكر مع النار العظيمـة من الآيات الواردة في حديث حذيفة، فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء مـن أمـور الدنيا[2].

وعندما تخرج النار من اليمن تنتشر في الأرض كلها، وتحشر الناس وتسوقهم رغماً عنهم إلى أرض الشام. وجاء في كيفية حشرهم ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**يحشر النّاس على ثلاث طرائق: راغبين، وراهبين، واثنان علـى بعـير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويَحْشر بقيتهم النارُ تقيـل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسـي معهم حيث أمسوا**»[3].

قال النووي -رحمه الله-: (قال العلماء: وهذا الحشر في آخر الدنيا قبيل القيامـة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٦٢٨) في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلـق آدم وذريتـه ح (٤٢١٠).

(٢) انظر فتح الباري (٨٢/١٣) ابن حجر.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٩٠) في كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، ح (٦١٥٧).

وقبيل النفخ في الصور، بدليل قوله -ﷺ-: تحشر بقيتهم النار، تبيت معهم، وتقيل وتصبح وتمسي)[١].

المبحث الثاني: آخر من تحشرهم النار.

مرَّ بنا في المبحث السابق أنَّ آخر أشراط الساعة هي النّار العظيمة التي تخرج من قعر عدن فتسوق النّاس إلى أرض المحشر وآخر من تحشرهم تلك النّار هما راعيان من مزينة. ودليل ذلك ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «**يتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلا العوافي يريد عوافي السباع والطير. وآخر من يحشر راعيان من مزينة، ينعقان بغنمها، فيجدانها وحشا، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرَّا على وجههما**»[٢].

فآخر من يحشر راعيان من قبيلة مزينة يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما، أي: يصيحان بها. فيجدانها وحشا، أي: خالية ليس بها أحد. حتى إذا بلغا ثنيَّة الوداع خرا على وجوههما حين تدركهما الساعة وهما آخر من يحشر[٣].

المبحث الثالث: آخر المخلوقات موتاً.

بعد أن يأمر الله -سبحانه- إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور، تزلزل الأرض، وتنهد الجبال، ويموت أهل الأرض جميعاً، وتموت الملائكة، ويبقى من استثناهم الله بقوله -

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/١٩٤-١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٦٦٣) في كتاب أبواب فضائل المدينة، باب من رغِبَ عن المدينة، ح (١٧٧٥)، ومسلم في صحيحه (٢/١٠١٠) في كتاب الحج، باب في المدينة حين يتركها أهلها، ح (١٣٨٩).

(٣) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٩/١٦٠) النووي.

تعالى-: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. وقد اختلف العلماء في تعيين الذين استثناهم الله - تعالى-، ولا يوجد دليل صحيح صريح يفصَلُ به في المسألة. فالأولى بالمسلم التوقف في تعيين الذين استثناهم الله وهذا ما ذهب إليه بعض أهل العلم، فإذا كان النبي -ﷺ- لم يُخبَر بكل من استثنى الله، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر(١).

وبعد موت من شاء الله موته يقبض الله أروح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ويتفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ [غافر: ١٦]. ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. أي: أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء وحكمت بالفناء على كل شيء ثم يحي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث(٢).

فآخر من يموت من المخلوقات في نفخة الصعق الأولى هو ملك الموت.

المبحث الرابع: آخر من يجيز الصراط.

مر بنا سابقاً أن أوّل من يجيز الصراط عندما يضرب على متن جهنم النبي محمد -ﷺ- والأنبياء بعده ثم أمة محمد -ﷺ- وأوّل من يجيزه من أمته هم فقراء المهاجرين. فكما أن هناك أول من يجيز الصراط فكذلك هناك آخر من يجيز الصراط، ذكرهم

(١) انظر مجموع الفتاوى (٢٦١/٤) ابن تيمية.
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (٦٤/٤) ابن كثير.

الرسول -ﷺ- بأحوالهم و لم يسمهم بأعيانهم، فذكر أن آخر من يجيز الصراط هو من تسحبهم الملائكة سحباً لعدم قدرتهم على المشي أو الحبو، فسرعة المرور على الصراط بحسب الأعمال في الدنيا.ففي الحديث الطويل الذي رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- وفيه: «**ثُمَّ يُؤْتى بالْجسْرِ فيُجْعَلُ بين ظهْرَيْ جهَنَّمَ قُلْنا: يا رسُولَ اللّهِ وما الْجسْرُ، قال: مدْحَضَةٌ مزِلَّةٌ عليه خطَاطِيفُ وكَلالِيبُ وحَسَكَةٌ مُفلْطَحَةٌ لها شكوة عقيفة تكُونُ بنَجْدٍ يقَالُ لها السَّعدَانُ الْمؤْمِنُ عليها كَالطَّرْفِ وَكَالبَرْقِ وَكَالرّيحِ وَكَأَجَاويدِ الخَيْلِ وَالرّكَابِ فنَاجٍ مسَلَّمٌ ونَاجٍ مَخْدوشٌ وَمَكْدوسٌ في نارِ جهَنَّمَ حتى يَمرَّ آخِرهُمْ يسْحَبُ سَحبًا، فما أَنْتمْ بأَشَدَّ لي مناشَدَةً في الحَقِّ قد تبَيَّنَ لَكمْ من الْمؤْمِنِ يَوْمَئذٍ للْجَبَّارِ، وإذا رَأَوا أَنَّهمْ قد نَجَوا في إخْوَانِهِمْ يَقولُونَ: ربَّنا إخْوَاننا كَانوا يصَلُّونَ معَنَا وَيَصومُونَ معَنَا وَيَعْمَلونَ معَنَا فيقول الله – تعالى-: اذْهَبوا فمَنْ وَجَدْتمْ في قَلْبِهِ مثْقَالَ دينَارٍ من إيمَانٍ فَأَخْرِجوهُ...**» [(١)].

قال العيني: (قوله: فما أنتم بأشد لي مناشدة، أي: مطالبة . قوله: قد تبين جملة حالية . قوله: من المؤمن صلة أشد . قوله: للجبّار وقوله: في إخوانهم، كلاهما متعلق بمناشدة مقدرة أي: ليس طلبكم مني في الدنيا في شأن حق يكون ظاهراً لكم أشد من طلب المؤمنين من الله في الآخرة في شأن نجاة إخوانهم من النار، والغرض شدة اعتناء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٠٧/٦) في كتاب التوحيد، باب قول الله – تعالى-: ﴿ وُجُوه يَوۡمَئِذ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَة ﴾ح (٧٠٠١).

المؤمنين بالشفاعة لإخوانهم)[(١)].

فجاء التصريح في الحديث بأنَّ آخر من يجيز الصراط هو من يسحبُ سحباً فيصيبه من كلاليب وحسك الصراط ما يصيبه حتى ينجو من بعد ما ظن أنه هالك.

المبحث الخامس: آخر أهل النّار خروجاً منها، وآخر أهل الجنّة دخولاً فيها.

من رحمة الله -ﷻ- أنه لا يبقى في النار موحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وإنما يعذبهم بقدر ذنوبهم ثم يخرجهم من النار إلى الجنة ويكون آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً فيها هو من ذكره النبي -ﷺ- واصفاً حاله، ولم يذكره بعينه في الحديث الذي يرويه عبيد الله -رضي الله عنه- قال النبي -ﷺ-: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا، فَيَقُولُ اللَّهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا - فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي - أَوْ: تَضْحَكُ مِنِّي - وَأَنْتَ المَلِكُ " فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يَقُولُ: «ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً**»[(٢)].

وجاء في حديث آخر عند مسلم صفة خروج آخر أهل النار وصفة دخول آخر أهل الجنة فيها في رواية أنس عن ابن مسعود-رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «**آخِرُ**

(١) عمدة القاري(٢٥/١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٤٠٢) في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ح (٦٢٠٢)، ومسلم في صحيحه (١/١٧٣) في كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً، ح (١٨٦).

مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهْوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو[١] مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ[٢] النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللهُ -عز وجل-: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنَّ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لا، يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابُ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي[٣] مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ،

---

(١) (يكبو): معناه يسقط على وجهه. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٣/٤٢).

(٢) (تسفعه): معناه تضرب وجهه وتسوده وتؤثر فيه أثرا. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٣/٤٢).

(٣) (ما يصريني): بفتح الياء واسكان الصاد المهملة، معناه ما يقطع مسألتك مني. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٣/٤٢).

أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟"، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ، قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»(1).

فهذان دليلان في صفة آخر من يخرج من النّار، وآخر من يدخل الجنّة. وهذا الفضل العظيم والإكرام من الله لمن هو مقصّر فكيف حالة المطيع، وليس نقض هذا العبد عهده وتركه ما أقسم عليه جهلاً منه، ولا قلّة مبالاة بل علماً منه بأن نقض هذا العهد أولى من الوفاء به، لأنّ سؤاله ربه أولى من ترك السؤال مراعاة للقسم(2).

المبحث السادس: آخر دعوى أهل الجنّة.

نعيم الجنّة وعد وعده الله لأهل الإيمان والتقى والصلاح، وهذا النعيم لا يمكن قياسه على نعيم الدنيا وملذاتها وإن تشابهت الأسماء فإن نعيم الجنة يختلف اختلافاً كلياً عن ملذات الدنيا قال - تعالى-: ﴿**وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ**﴾ [البقرة: ٢٥]. هذا النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومن جملة النعيم: الأكل والشرب. وفي نهاية هذا النعيم يحمد أهل الجنة ربهم على ذلك فيقولون: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو آخر دعواهم، قال - تعالى-: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٤/١) في كتاب التوحيد، باب آخر أهل النار خروجاً، ح (١٨٧).
(٢) انظر فتح الباري(٤٧٠/١١) ابن حجر.

وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٩-١٠].

والمعنى: دعاء أهل الجنة (سبحانك اللهم): وهي كلمة تنزيه تنزه الله من كل سوء، وأهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس. وقيل: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا أرادوا الطعام قالوا: سبحانك اللهم فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله. فذلك قوله - تعالى-: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (وتحيتهم فيها سلام) أي: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، وقيل: تحية الملائكة لهم بالسلام، وقيل: تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام. (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) يريد يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختتمونه بالتحميد(١).

* * *

(١) انظر تفسير البغوي (٢/٣٤٥) البغوي.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي أكمل الدين وأتم النعمة والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، وجعله خاتماً للنبيين.

وبعد أن منّ الله عليّ بإتمام هذا البحث، أذكر فيما يلي أبرز النتائج التي توصلت إليها وهي على النحو التالي:

١- إن أوّل أشراط الساعة المؤذنة بتغير أحوال العامة في الارض هو ظهور الدجال، وأوّل أشراط الساعة المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي والذي ينتهي بقيام الساعة هو طلوع الشمس من مغربها .

٢- إن التقديم والتأخير للخلق يوم القيامة بحسب صلاحهم وتقواهم وأعمالهم الصالحة في الدنيا .

٣- إن نبينا محمد -ﷺ- له فضائل يتميز بها عن الأنبياء عليهم السلام منها: أنه أوّل من ينشق عن القبر، وأوّل شافع ومشفع، وأوّل من تفتح له أبواب الجنة فيدخلها .

٤- لأمة محمد -ﷺ- فضل على سائر الأمم، فمن فضائلها أنها أوّل من يحشر، وأوّل من يحاسب من الأمم ويقضى بينهم، وأوّل من يجيز الصراط، وأوّل من يدخل الجنّة، فهي الآخرة في الدنيا السابقة يوم القيامة.

٥- للدماء المعصومة حرمة عظيمة عند الله فإذا سفكت بغير حق كانت أوّل ما يقضى بين الناس يوم القيامة، والاستخفاف بها في هذا الوقت من بعض السفهاء دليل على قلة العلم وغلبة الهوى والشيطان.

٦- عظم أمر الصلاة؛ فهي أوّل ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة فإذا صلحت نجا وفلح وإذا فسدت خاب وخسر.

٧- أهمية الإخلاص وعظم شأنه وخطورة صرف المرء نيته لغير الله، حيث أن أوّل من تسعر بهم النار هم من أدوا أعمال ظاهرها الصلاح وباطنها صرفت لغير الله .

٨- آخر أشراط الساعة نار عظيمة تخرج من قعر عدن تسوق النّاس إلى أرض المحشر، وعلى إثرها تقوم الساعة وآخر من تسوقه النّار وتحشرهم راعيان من مزينة .

٩- إن التوحيد أمره عظيم، وثمره جليل فمن ثمراته أنه لا يبقى في النّار موحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ويكون آخر من يخرج من النّار رجلاً يخرج حبواً ويعطى من النعيم مثل الدنيا ومثلها معها .

١٠- الجنة دار نعيم وجزاء وليست دار عمل فلا تكليف فيها ولكن يظل تسبيح الله وتحميده هو دعوى أهل الجنّة قال - تعالى- ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ١٠].

* * *

قائمة المراجع

القرآن الكريم.

-**البداية والنهاية**، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت.

-**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، المباركفوري، دار الكتب العلمية بيروت،

-**التخويف من النّار والتعريف بحال دار البوار**، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي، دار النشر: مكتبة دار البيان - دمشق - ١٣٩٩، الطبعة: الأولى.

-**التذكرة بأحوال الموتى وأمور الأخرة**، أبو عبدالله القرطبي، تحقيق د. الصادق ابن حمد، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

-**تفسير البغوي**، البغوي، تحقيق: خالد عبدالرحمن العك، دار المعرفة، بيروت.

-**تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، دار الفكر، بيروت.

-**التعريفات**، علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب العربي، بيروت١٤٠٥هـ.

-**التيسير بشرح الجامع الصغير**، المناوي، الناشر مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

-**توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم**، أحمد بن

إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت .الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

-**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد الطبري، دار الفكر، بيروت.

-**الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبدالله محمد القرطبي، دار الشعب القاهرة.

-**حاشية السندي على سنن النسائي**، نور الدين السندي، تحقيق عبدالفتاح ابو غدة مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

-**حاشية ابن القيم على سنن أبي داود**، ابن القيم، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

-**دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**، محمد الصديق الشافعي، دار الكتاب العربي، بيروت.، بيروت، ١٣٩٥هـ.

-**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

-**الروح**، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ.

-**زاد المسير في علم التفسير**، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ.

-**الاستقامة**، ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، دار النشر جامعة الإمام محمد ابن سعود، المدينة ١٤٠٣هـ.

-**السلسلة الصحيحة**، محمد ناصر الدين، الألباني، طبعة ١٤١٥هـ، مكتبة

المعارف للنشر، الرياض.

-**سنن ابن ماجه**، ابن ماجه، تحقيق: محمد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت.

-**سنن أبي داود**، أبو داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت.

-**سنن أبي داود**، حكم وعلق على أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

-**سنن البيهقي الكبرى**، أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الطبعة ١٩٩٤م — ١٤١٤هـ، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة.

-**سنن الترمذي**، الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

-**السنن الكبرى**، أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: د. عبدالغفار البنداري، سيد كسروي حسن، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار الكتب العلمية، بيروت.

-**شرح العقيدة الطحاوية**، علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق د. عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط.

-**شرح النووي على صحيح مسلم**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربي.

-**شعب الإيمان، البيهقي**، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

-**صحيح البخاري،** محمد بن إسماعيل البخاري، المحقق: د. مصطفى ديب البغا، طبعة ١٩٨٧م، الطبعة الثالثة، دار ابن كثير اليمامة.

-**صحيح الترغيب والترهيب،** محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى ١٤٢١هـــ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

-**صحيح الجامع،** محمد ناصر الدين الألباني، المحقق/زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـــ.

-**صحيح مسلم،** مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

-**طريق الهجرتين وباب السعادتين،** ابن القيم، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، ابن القيم، الدمام، ١٤١٤هـــ.

-**عمدة القاري شرح صحيح البخاري،** بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

-**عون المعبود شرح سنن أبي داود،** محمد شمس الحق العظيم آبادي، الطبعة الثانية ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

-**فتح الباري شرح صحيح البخاري،** ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

-**الفروق،** أسعد النيسابوري الكرابيسي، تحقيق: د. محمد طموم، دار النشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـــ.

-**فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المناوي، المكتبة التجارية الكبرى/مصر الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.

-**لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت.

-**مجموع رسائل الحافظ ابن رجب**، أبو عبدالرحمن الحنبلي، جمع وتحقيق: أبو مصعب طلعت الحلواني، الناشر مكتبة الفارق الحديثة.

-**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، أبو بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت.

-**مجموع الفتاوى**، ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد العاصمي، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية.

-**مسند أبي يعلى**، أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، دار المأمون للتراث، دمشق.

-**مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.

-**مشكاة المصابيح**، الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد الألباني، المكتب الإسلامي ١٣٩٩هـ.

-**معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، حافظ حكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

-**معاني القرآن الكريم**، النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

-**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الحديث**، محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

-**النهاية في غريب الحديث والأثر**، ابن الأثير، مطبعة بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٥٥م.

-**النهاية في الفتن والملاحم**، ابن كثير، تحقيق: عبد الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

* * *